الطبعة السادسة

د. عائض القرني

أعظم سجين في التاريخ

العبيكان
Obekan

د. عائض القرني

أَعْظَمُ سَجِينٍ

فِي التَّارِيْخِ

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض عبدالله

أعظم سجين في التاريخ./ عائض عبدالله القرني. ـ ط٦. الرياض، ١٤٣٠هـ

١٦٠ ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٥ ـ ٨٤٢ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠ ـ ٩٧٨

١ ـ يوسف (عليه الصلاة والسلام) ٢- قصص القرآن أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ٦٠٨٤ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٦٠٨٤ / ١٤٣٠

ردمك: ٥ ـ ٨٤٢ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠ ـ ٩٧٨

الطبعة السادسة

١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥



صفحة بيضاء (٤)

- ١ -

فَصَاحةُ القُرآنِ ومُبَشرَاتٌ صَادِقَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

نبدأ حديثنا هذا مع أعظم سجين في التاريخ مستعينين بالله - عز وجل - ونحن نعيش مع كتابه - جل في علاه - الذي هو العروة الوثقى، وهو الكتاب الخالد والمعجزة الكبرى لرسولنا - عليه الصلاة والسلام - مع الهدى والنور والشفاء والرحمة والموعظة والتبيان لكل شيء، والبرهان والحجة القاطعة، واخترت سورة يوسف؛ لأنها من أعظم القصص، حتى قال بعض أهل العلم: إنها أعظم قصة سمعنا بها، قال سبحانه- كما سوف يأتي معنا-: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ وأحسن القصص، قالوا: سورة يوسف؛ لأن فيها من قصص الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة السلام - والملوك والتجار والفقراء والحبس والشدة والفرج والغنى والفقر، وذكر الفاحشة والعفاف، وذكر الذنب والمغفرة، والرؤيا المنامية، والأخبار في اليقظة، وقالوا: أحسن القصص؛ لأن كل ما جاء فيها عاد إلى أحسن حال، وأحسن سرور، وأحسن حضور، فيوسف تحول من حال الحبس والاضطهاد إلى النبوة والملك، وأبوه -عليه السلام- بُشِّر بالانفراد واجتماع الشمل، وتاب

الله على إخـوانه، وتـاب على امــرأة العــزيز على كـلام بعض أهل العلم، ودخل العـزيز في الإسـلام، وعادت كل آثار القصة إلى الخير وإلى الانفراج وإلى الفـرح وإلى السرور؛ فكانت أحسن قصـة، لكن دعونا من كلامنا نحن إلى كلام الذي خلقنا -سبحانه-، ودعونا من حـديث أهل الأدب، وأهل العلم، وأهل الشـعـر إلى كـلام الذي خلق العلماء والشعراء والأدباء جل في علاه، والله -عز وجل- وصف كتابه وكـلامـه أنه لا يأتيـه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه، وأنه مـعـجـز ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فيا كتَّاب، يا شـعـراء، يا أدباء ويا مـفكرون، اجتـمـعـوا ثم خـذوا لكم الشـجـر أقـلامًـا، واجمعوا البحار مدادًا، واجعلوا صحيفة السماء ورقة، واكتبوا مـا شئتم، فـآية من آيات البـاري - جل في عـلاه - تفوق مـا كتبتم بمراحل تعجزون عنها.

بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿الر﴾، قال أهل العلم: الله أعلم: بالمراد سبحانه، وقال بعضهم: بل الله أراد أن يتحدى العرب؛ لأن مـعـجـزة الـرسـول ﷺ في البـيـان وفي القـرآن، وفي هذا الكتـاب الخالد، قل: يا عرب، يا فصحاء الدنيا، يا خطباء العالم، يا شعراء المعمورة: أنتم أفصح الأمم قاطبة بلا تحيز ولا محاباه ولا مجاملة، باعـتـرافكم واعـتـراف غـيـركم من غيـر العرب، قـد يكون من غـيـر العـرب أهل فنون أكثر منا، أو أهل حضـارة أكثر منا، أو أهل شـعـر أكثر منا، أو أهل تأليف أكثر منـا، لكن العرب بالذات أهل فصاحة

وبيــان، فــاللّه أرسـل مــحــمــدًا ﷺ أفـصـح الـناس، حــتى قــال له الصــحــابة: يا رسـول اللّه، «مــا رأينا أفـصـح منك هـكذا». روي في الحـديث، وذكـره صـاحب كنز العمـال بسند لا بأس بـه، قالوا: «مـا سمعنا أفصح منك يا رسول اللّه» فأخبرهم ﷺ أنه أفصح الناس؛ لأنه من قـريش وتربى في بادية بني سـعـد حيث الفصاحـة، ثم إن اللّه تولى عنايته فأخرجه أفصح من نطق بالضـاد وتكلم ﷺ بها. ثم أنزل عليه الكتاب العزيز الذي يأخذ الألباب، ويذهب بالعقول إشـراقة وحلاوة وتلاوة وإعجازًا ودليـلاً وبرهانًا، هـذا هو الكتاب. فيقول: يا عرب، يا من غلبتهم الناس بالفصاحة، هذا (أ) (ل) (ر) الحـروف من كـلامكم، أنتم تتكلمـون بهـذه الحـروف، مـلأتم الدنيـا ضجيجًا ومحاضرات ودروسًا وخطبًا ولقاءاتٍ وحوارات من «ألف» ومن «لام» ومن «راء»، ومن «مــيم»، ومن «نون» ومن هـذه الحــروف تأتون بكلام مثل هذا الكلام، لكنكم لا تسـتطيـعون أن تأتوا بكلام يشبـه كلام الله، حتى قـال بعض العلمـاء: مَثَلُ كـلام اللّه -جل في عـلاه سـبـحـانه وتعالى- وكـلامنا مَثَلُ هذا التراب الذي معنا نحن نبني فيه بيوتًا من تراب، ونبني به أدوات من خـزف وفخار فنشرب بها الماء، ونأكل بها الطعام، وهي من هذا التراب الذي لا نستطيع أن نخلق منه إنسانًا، اللّه خلق من هذا التراب الإنسان، فمن هذا الكلام نستطيع أن نلقي درسًا ومحاضرة ومقامة وقصيدة، لكن لا نستطيع أن نأتي بمثل هذا القرآن، فاللّه أنزل القرآن بهذا الكلام فأعجز الناس بهذا الكتاب، الذي أنزله على رسوله -عليه الصلاة

والسلام- وتولى حفظه وتحدى به العالم، وجعل فيه البركة والخير والنور والهداية والشفاء والعافية، وأنا أقول لكم بصريح العبارة ويسمعني من يسمعني: مسكين من لم يتدبر في اليوم ولو صفحة من القرآن، مسكين من لم يكن له وِرْدٌ، ولو قليلاً من هذا الكتاب الخالد، فقير ومسكين وهزيل ومعدم من قدَّم المجلات والصحف وكلام غثاء الناس، ونفثات الشعراء، وهمز السحار، ونفث الكهان على كلام الرحمن -جل في علاه-، اقرأ وتدبر. القلب الذي لا يوجد به شيء من القرآن كالبيت الخرب، يقال لك يوم في الجنة: «**اقرأ وارتقِ ورتل، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»، فعلى قدر حفظك تترقى في درجات جنات النعيم، وأحسن من ذلك من عمل بالكتاب ولو لم يحفظ إلا جزءًا أو سورة أو ثلاث سور، لكن من حفظه وعمل بما فيه فهو الكامل بلا شك الذي يرفعه الله -سبحانه وتعالى- بهذا الكتاب.

فالله يقول في سورة يوسف: ﴿**الٓر**﴾ وإذا أتت الحروف المقطعة ذكر بعدها مدح القرآن، أو ذكر الكتاب المنزل على محمد ﷺ ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ من هذا الكلام، من هذه الحروف أتت آيات الكتاب المبين، كل واحد له كتاب، وكتاب الواحد الأحد القرآن، كل مؤلف وكل شاعر يعتذر في أول كتابه من التقصير، أو الوهن، أو السهو، أو النسيان، إلا الواحد الأحد لم يعتذر في أول الكتاب وحاشاه، بل قال: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ لا نقص فيه ولا تقصير ولا استدراك ولا ملاحظة، بل التحدي به والنور فيه،

والدليل القاطع ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، وإنما سماه كتابًا لتجمع آياته كالكتيبة يتجمع بعضها إلى بعض؛ فهذا كتابه - سبحانه وتعالى -، هذا كتابه الخالد -جل في علاه- ويكفينا شرفًا أن الله تكلم به، ﴿الْمُبِينِ﴾ قالوا: الذي بيّن الحلال والحرام، إنه بيَّن للناس ما نزل إليهم فيه من الأحكام والعقائد والأدب والأخلاق والسلوك والمعاني ما صغر منها وما كبر، فلله الحمد على أنْ بَيَّنَ لنا ديننا في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ، والحمد لله أنه جعله مبينًا فصيحًا سهلاً ميسرًا يفهمه الحاضر والبادي، والكبير والصغير، والمتعلم والأمي.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ مَنْ هو؟!!! إنه الله يتكلم عن نفسه - جل في علاه - في القرآن (نحن وإنا وأنا) فلله الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال: ﴿إِنَّا﴾ لم يقل: أنا، قال ﴿إِنَّا﴾ هذا للتعظيم لكثرة صفاته وأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وما اجتمع له - سبحانه وتعالى - من كمال وجلال وجمال، فقال سبحانه وتعالى بالجمع: ﴿إِنَّا﴾ قدم الضمير تشريفًا لما سوف ينزله لتنصت الأسماع لهذا الكتاب المنزل المبارك على رسوله - عليه الصلاة والسلام - يقول ﴿إِنَّا﴾ ثم تتوهم أو تنتظر ماذا يقال لك: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ ولم يقل «خلقناه» وهو رد على المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، بل كلامه - سبحانه وتعالى - منزل تكلم به، وليس مخلوقًا، بل هو من أمره جل في علاه، تكلم به - سبحانه وتعالى - نزل به جبريل على قلب محمد -عليه الصلاة والسلام- يُكتب بالصحف ويقرأ ويحفظ، فتعالى الله -سبحانه- الذي نَزَّل هذا

الكتاب وتولى حفظه، وهو من كلامه -سبحانه- سماه كلامه ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أَنْزلَناه ولم يأتِ في القرآن نَزَّلْناه، قال بعضهم: إذا قال: «نَزَّلْناه» فهو المقطع المنجم على فترات من سماء الدنيا إلى محمد ﷺ، وأما «أَنْزلَناه» فدفعة واحدة، وجملة واحدة، ومرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا والله أعلم. قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ وهذا خطاب خفي لمن أراد الهداية، أنزلناه على محمد ﷺ، قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وهنا وقفة مهمة، فمن صفات هذا الكتاب أنه عربي، قالوا: فأحسن اللغات، وأوسعها في المعاني، وأكثرها تبيانًا للفهم، وإيصالاً للمعلومة، وإيقاظًا للذهن هي اللغة العربية، ذكر ذلك الآلوسي والزمخشري والقرطبي ببيان، والحقيقة إن هذا أمر معلوم، حتى قال بعض الذين تكلموا باللغات وألَّفُوا فيها وكتبوا: في اللغة العربية أربعون مليون كلمة، وبعض اللغات الأخرى أربعون ألفًا، فالله نزل هذا الكتاب بهذه اللغة، جاء في بعض الآثار: «أن لغة أهل الجنة العربية» والله أعلم، والقرآن عربي، ولغة محمد ﷺ عربية، ولغة أهل الجنة عربية، فنسأل الله أن ندخل جناته ثم نتكلم بعد ما ندخل باللغة المقدرة، المقصود أن ندخل من الباب حتى يقول من يتعصب للعربية لأن تهجوني بالعربية: أحسن من أن تمدحني بالأعجمية، فيقول ابن تيمية: من حب الإسلام أن تحب العربية؛ لأنها لغة القرآن، ولغة محمد ﷺ، وهي التي نزل بها الوحي وأتى بها الحبيب، فإذا رأيت إنساناً يمدح لغة أخرى على حساب العربية ويذمها ويتنقصها فاعرف أن في

دينه وخزًا، ولعل به شعبة من شعب النفاق، فأنا لا أقول: لا تتعلم لغات أخرى، بل أقول من هذا المنبر: إن تعلم اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية وغيرها مما يقوي معلومات طالب العلم الداعية المثقف، ويجعله واسع الاطلاع على ثقافاتهم وعلومهم أمر مهم، لكن أن تأتي بلغة أخرى وتصفها على حساب القرآن، ولغة محمد ﷺ ولغة المؤمنين، ولغة أهل بدر ولغة الخلفاء الراشدين فهذا ليس مقبولاً؛ لأن بعض الدعوات كما ذُكِر تدعو إلى ترك اللغة العربية أو الاستغناء عنها، أو الخروج عن النص العربي الفصيح إلى العامي والشعبي، واللغات الدارجة، وهذا خطأ لا نقره ولا يقره أهل الاسلام، وعلماء الأمة والحمد لله بالإجماع. قال: الحمد لله الذي نزله عربيًا، والحمد لله الذي يسره لنا حفظًا وتلاوة وتدبرًا وفهمًا ومعرفة، قال: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ حتى تعقلوا ما فيه ولو كان صعبًا، فلو نزل بلغة أخرى، ثم احتجنا إلى أن نتدبر ما فيه، أو أن يتوصل أحدنا إلى بلاغة كلماته لأصابته الكلفة والمشقة إلى أن يعرف ما في هذا الكتاب، انظر إلى أن بعض الأفراد كالباكستاني والأفغاني والهندي كيف يصعب عليهم القرآن مع أن الله أكرم بعضهم بحفظه، وأصبح بعضهم يدرس أبناءنا؛ وهذا من شرف هذا الكتاب، فمن يحمله يشرف به عند الله - سبحانه وتعالى - لكن الله - عز وجل - سهله لنا نحن العرب، فهم يجدون فيه صعوبة في ألفاظه وفي معانيه حتى التركيب أحيانًا بعضهم يحفظ القرآن لكن لا يدرك فيه التركيب والعبارة، ولا مدلولها أو بلاغتها

أو جمالها، فنحن نحس بجمال القرآن وبيانه وروعته أكثر منهم، وقد يكونون أفضل منا في أفرادهم، أسأل الله أن يتقبل من كل مسلم عمله الصالح، حتى إن بعضهم ذَكر لي: أنه كان يأخذ لفظًا من القرآن فيسمي ابنه بهذا اللفظ، ويقول: يكفي أن هذا في القـــرآن، وهو لا يدري من أين هو، من أين هذا اللفظ، لا يدري يقول: قد سمع الله، يسمي ابنه: سمع الله هذه ألفاظ، ما يدرون أن سمع فعل والله - سبحانه وتعالى - اسم الجلاله -، ما يركب الاسم كذا، يقول: عبدالله، سمع الله، وعبدالرحيم سمع الرحيم، فهذا يقع فيه الكثير، إنما نقول: الحمد لله، وأن الله دلنا بكتابه نحن العرب إلى سهولة المعنى، وسهولة أن نفهم هذه الرسالة الخالدة التي أتى بها أسمى الخلق، وأن نفهم ماذا قال لنا إذا كانت لنا قلوب، إذا كانت لنا أبصار وبصائر، فهذا الذي قلبه بشهوات الدنيا؛ لأن بعض الناس يأتي قلبه محملاً بالأغاني والأماني والانصراف إلى الدنيا الفواش فلا يفهم المعنى، لا يفهم القرآن، لما ران على قلبه حتى تجده يفهم القصائد الدارجة والشعبية والجلسات والمجلات والملحقات والدوريات، لكن مع القرآن في قلبه غشاوة والعياذ بالله، فمن أراد أن يفهم هذا الكتاب فليأتِ وليتدرب وليستغفر وليتب وليسأل الله الهداية والتوفيق والفتح من عنده، وليمرغ وجهه في التراب لربه كما قال ابن تيمية: كان عمره ثماني سنوات، كان يمرغ وجهه في التراب يقول: يا معلم إبراهيم علمني، يا مفهم سليمان فهمني، ابن تيمية ثماني سنوات، الآن نأمرهم بالصلوات، والحريص منهم من يصلي معك، وقد لا يفهم شيئًا،

لكن هو مرغ وجهه في التراب في التراب ويقول: يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني، قال: تصعب عليه معاني بعض الآبيات فيقرأ مئة تفسير أو أكثر، ويرى هناك معاني آخرى، قال: يفتح الله من المعاني ما لا أجده في التفاسير وليس مكتوبًا، يفيض الله عليه رحمه الله. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذه رسالة موجهة لمن يعقل، قال الحسن: القرآن كلام الباري - سبحانه وتعالى - أرسله لعباده، وقال أحد الصالحين: مثل الذي يعرف معاني القرآن كمثل رجل أتاه كتاب الملك وعنده سراج، فأخذ يقرأ كتاب الملك على السراج، فصرف ما في الكتاب وأدى ما في الرسالة، فأجاب الملك، ومثل الذي لا يعرف معاني القرآن كمثل رجل في ظلمة وليس معه سراج، فأتاه كتاب الملك فوضعه على صدره ما استطاع أن يقرأه، فأخذه في وجل، وفي خوف، عنده الكتاب لكنه لا يدري ما به من معاني، فانظر إلى هذا، وانظر إلى هذا، واحذر أن تكون من الثاني، قال سبحانه ﴿نَحْنُ﴾ ليس أحد غيرنا، لا مؤلف كتب ولا لفيلسوف، ﴿نَحْنُ﴾ حق له سبحانه أن يعظم نفسه وهو العظيم، وحق له أن يمجد ذاته فهو الماجد، ﴿نَحْنُ﴾ ما أعظم الله، ما أجله سبحانه وتعالى، الجأ إلى الله يا غافلاً في ذنوب اللهو، يا ساهياً، يا لاهيًا ارجع إلى الله واستغفر جلالته، والله والله لن تلقى سوى الله الواحد الأحد يقول ﴿نَحْنُ﴾ الذي يبقى ويُفْني الملوك، هو الغني وغيره الفقير، الذي يبيد الدنيا ومن عليها وهو باقٍ يقول عن نفسه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ويقول:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ تعالى الله وتقدس، لا تمدحه بأعظم ما مدح به نفسه سبحانه وتعالى، وأنا أوصيكم بتكرار قول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إذا أردت أن تمدحه سبحانه، أنا أعرف بعض الفضلاء يقرؤها مئة مرة، وبعضهم يزيد على ذلك، قال: ﴿نَحْنُ﴾ يا محمد وأتباع محمد ﷺ القصص من عندنا، بعد محمد ﷺ ظهرت القصص، كنقوش بوذا، وألف ليلة وليلة، كلها انتهت إذ ليس لها قيمة، يذهبون الآن ليأخذوا ثقافتهم من الغرب ويطبقوا عليها تربية أبنائهم في البيوت، وتوجيه أسرهم وزوجاتهم وبناتهم، فهؤلاء أحسن الله عزاهم في إيمانهم ورسالتهم، أتانا جيل المعتقد العبادة والآداب والأخلاق والسلوك، انته عما أنت فيه من الغفلة، املأ بيتك نورًا إذا أردت أن يكون لديك نورٌ، اجمع أولادك وبناتك وقص عليهم قصة يوسف، أو إبراهيم، أو أهل الكهف، أو أصحاب الفيل، أو ما شئت، أما من يسعى بالكذب الذي يروج له العالم الآن، ففي ذلك تشويش على عقائد الناس، فرأيت بعض الكتب التي تنشر التوهين في التوكل، وفيها دغدغة للمشاعر وهتك للأعراض، واقتحام للحرمات، وقبح في الفضيلة، ونشر للرذيلة، فهذا الكتاب الذي أنقذنا الله به، وأنقذنا برسوله ﷺ قال ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ اترك القصص الأول، اترك الخرافات، اترك مجالس السمر، يأتي به جبريل من عند رب العالمين، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فقصص القرآن من أوثق القصص وأحسنها لثلاثة أسباب:

الأول: لعظم المصدر؛ لأنه من عند الله الواحد الأحد، من محمد إلى جبريل من رب العالمين هذا سند صحيح، هذا هو السند، فإذا سلكت القرآن والحديث وصلَّك هذا السند إلى جنات النعيم، يقول ابن تيمية: أهل الحديث الذين انتسبوا إلى هذا السند عن جبريل عن محمد عن رب العالمين لهم حظ من قوله سبحانه: ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾. وأهل الفلسفة لهم حظ من قوله: ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾.

قال: أهل الحديث والسنة بمنزلة أهل الصحابة والسنة، وأهل الفلسفة والمنطق بمنزلة المنافقين في عهده ﷺ، قال: وليس في العالم أحدٌ كله يدور معه الحق والحجة إلا محمدًا ﷺ وأما غيره فيحتاج قوله إلى أن يحتج له.

الثاني: أنه لا قوالة فيه ولا كذب ولا مبالغة. أكثر الروايات التي تبث الآن هي من نسج الخيال حتى يعلموا أبناءنا القصة، ليحصلوا بها على جوائز، فيذهب الابن إلى البيت يخطط الكذبة، ويحضرها في الصباح، ويقدمها في الدفتر، فَتُقدم له الجائزة، فأين الأخلاق والتربية؟!! وأين المبادئ في تلك القصص؟!! إن في القرآن الكريم من القصص ما يغنينا عما كتبه ضعفاء النفوس، وعديمو الإيمان، فهذه قصة يوسف موجودة، وقصة إبراهيم، وقصة آدم، وقصة الأعراف، عندنا القرآن، عندنا تاريخ يكفي الغربيين، فلسنا بحاجة إلى قصص من نسج الخيال والكذب؛ لأنه ليس عندهم كتاب خالد، حتى القصص التي نالت جائزة نوبل، مثل قصص نجيب محفوظ أكثرها من الخيال، فهي ليست حقائق واقعة، ومع ذلك أُعطي جائزة نوبل وغيره كثير.

الثالث: أن في قصص القرآن نفعاً وتربية وعودة إلى الحق، ونهياً عن الباطل بخلاف القصص الأخرى التي تخرج بالإنسان من عالمه، مثل قصص هنداوي وغيره من القصص التي تجده بالغ إلى درجة أن يصاب الإنسان بالوسوسة والتخيل، حتى أصيب بعض الناس بالمرض بسبب الكتب القصصية التي قرأها، وأنا أحذر إخواننا من الاعتماد على هذه القصص الخيالية أو الترويج لها في الأسواق، فليعودوا إلى كتاب الله، وإلى قصص الأنبياء، وقصص الصحابة رضوان الله عليهم وجمعنا بهم في دار الكرامة. قال سبحانه: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ يقول بعض المفسرين: «إن الصحابة اجتمعوا عند الرسول ﷺ، فقالوا: يا رسول الله مللنا فلو قصصت علينا يا رسول الله، فأنزل الله ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ قالوا: يا رسول الله «لو وعظتنا» فأنزل الله ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم**﴾ فالقرآن هو الموعظة، والقرآن هو أحسن القصص، والقرآن هو أحسن الحديث، هذا للذي عنده قلب، وقد شرح الله صدره بالقرآن، أما الذي قلبه مغلق معرض فلا يستطيع تدبره وفهمه، فلماذا تنهزم الأمة؟ ولماذا تتأخر؟ ولماذا تظهر هذه الأمة بهذا الخور؛ وهذا الفشل ولا تنتصر على الأمم ؟ نعم. عندنا كتاب انتصر به محمد ﷺ وانتصر به أصحابه، وهو القرآن، اعتصموا به فرفعهم الله ومجدهم، وأعظم قدرهم وشرفهم على العالم، فلما تركنا هذا النور تأخرنا وهَزَمَنَا أعداؤنا.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ استمع إليها الآن، فقصص القرآن لا تكون مجردة علمياً، بل سوف يُقَدَّم لها بمقدمات وتختم بخاتمة، وفيها إشراقات وبيان ومداخلات، وسوف يقدم لك مفاجآت بالسورة، وسوف يستمر معك من أول السورة إلى أن تصل معها في الآخر، وأنت في إثارة وفي بكاء وفي ذهول، يقول أهل العلم في السند الحسن: «كان عمر إذا صلى بالناس وبلغ قوله ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ انهار باكيًا في صلاة الفجر فبكا المسلمون معه» وكان كثيرًا ما يقرأ سورة يوسف، أما أبو بكر الذي سبقه بالإيمان كان إذا قرأ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ بكا فبكا الناس، قالوا: «ومن أتته مصيبة فقرأ سورة يوسف وجد منها من الفرج ومن الرزق ما الله به عليم».

وابن جرير يسأل في التفسير: لماذا ذكر الله سورة يوسف، وقصها للناس؟ وذكر الذنب الذي تعرض له يوسف -عليه السلام- قال: «ليكون أسوة لكل من وقع في مثل ذلك، ولكل من وقع في كُرْبة، وكل من وقع في مصيبة، وفي هذا الموقف الضنك فهذا قدوة وإمام لهم عليه السلام».

قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عما عُرِف به قبل، فلم يكن عنده -عليه الصلاة والسلام- آية من القرآن، ولم تكن عنده نبوة، فالله بعد ما عرفه رفع فضله وقدره بما عَرَّفَه من العلم والنبوة والرسالة ﷺ، فكل من لم يهتدِ بهدي الله الذي أرسل

به محمداً ﷺ سيكون من الغافلين، بل من الضالين المحرومين من رحمة الله سبحانه وتعالى.

نبدأ الآن قصة يوسف -عليه السلام- المُربَّى في بيت النبوة، في بيت يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ثلاث أنبياء وهو رابعهم، من هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟ هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، قال الرسول ﷺ: «الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» أربعة أنبياء في سند واحد، فأراد الله أن يرزق هذا الطفل النبوة في المستقبل، فلابد أن يمر بمحنة وهو طفل عمره اثنتا عشرة سنة. أراد الله أن يعلمه شيئًا من التدرج، أن يمر بشيء من المحن حتى يؤهله للنبوة، وهو في بيت النبوة، وكان ليعقوب -عليه السلام- اثنا عشر ابنًا، وأما يوسف وبنيامين فهم من أم، وأما العشرة فهم من أم أخرى، ولكن يوسف أحبهم إلى يعقوب؛ لأنه أذكاهم، وأفصحهم، وألمعهم، وأجملهم، قَسَّمَ الله الحسن في العالم إلى نصفين، نصف اشترك فيه ذرية آدم إلى قيام الساعة، والنصف الآخر ليوسف، تصوروا هذا يقول المتنبي:

حَبِيْبٌ كَأَنَ الحُسنَ كَانَ يُحِبُّه

فَآثَرهُ أو جار في الحُسْنِ قَاسِمُه

لقد آتاه الله نصف الحسن حتى إن نبينا ﷺ قال: «**قد رأيت يوسف - عليه السلام - قد أوتي شطر الحسن**» فالله ميز بعض الأنبياء على بعض بشيء، مثل: «داود» أعطاه الله الصوت الذي يسلب الألباب، يقرأ كتابه «الزبور» فتأتي الطير مثاني، وتقف

الدواب، ويقف الناس يسمعون هذا الكلام لداوود -عليه السلام- وآتى الله «محمدًا» المقام المرفوع، وَفضَّلَه على الأنبياء، المقام المحمود في الآخرة وغيرها من المقامات العظيمة، فهو أفضل الأنبياء -عليه الصلاة والسلام-، أما يوسف -عليه السلام- فقد أوتي نصف الحسن والجمال كما سبق، ولنا أن نتصور النساء وهن يقطعن الفاكهة فتقطع الواحدة منهن يدها بيدها، وقد جاء التعبير في القرآن بقوله: ﴿**قَطَّعْنَ**﴾ بالتشديد بدلاً من «قَطَعْنَ»؛ وذلك للإشعار بعدم إحساسهن بالألم مع حركة السكين ذهابًا وإيابًا. ويقلن حاشا لله ما هذا بشراً، هذا نزل من السماء أو نزل من الجنة، فقد كان يغلب حبه عند أبيه عن الآخرين، كان يعقوب يضمه إليه ويمازحه، ويقبله، ويذهب معه إلى مصلاه، ويعود معه، وإخوانه لأبيه يلحظون ذلك ويرصدون له المواقف والحركات والسكنات، ويتأثرون بذلك.

يقول العلماء: نام يوسف تلك الليلة، وفي بعض التفاسير قالوا: إنه نام في ليلة القدر، وقال بعضهم: إن ليلة القدر أعطيت محمداً ﷺ فقد اختص الله بها محمدًا، وقالوا: ليلة الجمعة، الله أعلم، غير أن المهم أنه رأى رؤيا في المنام، فقام الطفل وذهب إلى أبيه، وقال: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾، يقول: يا أبتي رأيت في المنام أن أحد عشر كوكبًا مثلاً، العقرب والثور وغيرها من هذه الكواكب العظيمة عند العرب ومعها الشمس والقمر نزلت من السماء ونزل معهما أحد عشر

كوكبًا أمامي وسجدوا لي أنا، هذه من العظمة، هذه رؤيا عظيمة تبشير بالخير والمستقبل الزاهر، قال: ﴿**إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾؛ إخوانه، والشمس والقمر، أبوه وأمه كلهم خروا له ساجدين، فعرف يعقوب -عليه السلام- الأمر لأنه كان يعبّر الرؤى، فقال له: انتبه لا تقل لإخوانك شيئًا عن هذه الرؤيا؛ لأنها رؤيا عظيمة وجليلة، وبشرى سارة، وفتح مبارك وشيء مذهل، لا تخبر أحدًا اتركها بنفسك. قال: يا بني، هذا إنذار من يعقوب إلى يوسف لا تقص هذه الرؤيا على إخوانك، قال أهل العلم: في هذا الأمر مصلحة شرعية، فمن كانت عنده رؤيا صالحة فلا يقصها على أي أحد كان؛ لأن بعض الناس يحسدون، فإذا كنت في نِعَم فاكتمها إلا عمن تحب.

قال: ﴿**يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾، في القرآن كدنا لهم وكدتهم، يقول: إنهم يكيدون كيدًا، وأكيد كيدًا، يعني يكيدهم -سبحانه- وفي القرآن كدنا ليوسف، يعني: صنعنا الحيل لصالحه ضد من خاصمه ومن عاداه، قال: والكيد الإيذاء في الخفاء فلا يواجهون خصمهم عيانًا، بل يلتمسون أستر الأساليب وأخدعها فيوقعونه في ورطة، وهذا هو الكيد؛ لذلك عند النساء كيد عظيم؛ لأن المرأة تجيد في الغالب أن تكيد إلا من عصم الله، قال: يأتونك من حيث لا تدري، إما أنهم يدبرون اغتيالاً لك، أو سوف يزوِّرون عليك عند الناس، أو سوف يقاطعونك ويهجرونك، ثم أتى يعقوب -عليه السلام- يعتذر ويخبر أن هذا من

طبيعة البشر منذ أن خلق الله السموات والأرض، وأنه ما خلا جسد من الحسد، وأن المعصوم من عصمه الله، وأن النفوس يغلب عليها أن تستأثر بالخير لها وتكره الخير لغيرها.

قال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ قال: إن هذا الحسد من الشيطان، هناك شيطان سوَّل لهم وأملى لهم، وليس من طبيعة إخوانك؛ فهم أهل خير وما رأينا فيهم إلا الصلاح، ولكن الشيطان يثير الفتن بين الإخوة، وبين الأحباب، فاحذروا الشيطان وحاربوه بما أمرنا به الله -سبحانه وتعالى- به من الذكر والتحصن بطاعته -عز وجل- واتباع الرسول ﷺ والصلاة بخشوع.

قال يعقوب: أما إذا كتمت الرؤيا ولم تخبر إخوانك، واستعنت بالله، وأصلحت ما بينك وبينه فأبشر بالخير، فإن الله سيصطفيك ويجتبيك ويختارك على العالم، لتكون رسولاً مثل ما اختارني واختار أبويك إسحاق وإبراهيم، فالله يختار من يشاء، وقد يجتبيك إذا أطعته فتكون وليّاً بين أوليائه، وهذا أعظم منصب في الحياة أن تكون وليّاً لله، ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾، فاحرص على أن تكون عبدًا صالحًا منيبًا مخلصًا لله فهذه أعظم مكانة.

قال: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾، قال بعض المفسرين: يعلمك من النبوة، أو تأويل بعض الأحاديث، أو إعطائك العلم النافع، أو تعبير الرؤيا، وهذا كله حصل له، يقول:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، وما الأمنية؟ توفني مسلمًا. قال: ويعلمك من تأويل الأحاديث، فتكون أولاً معبرًا ومفسرًا، آتاه الله الملك -عليه السلام- فملك مصر، وكان نبيّاً يعلم الناس، ويعبر لهم الرؤى، ويتم نعمته عليك، فالنعمة يتمها الله على من يشاء من عباده، لكن إتمامها هو فضل من الله ثانٍ يستمر على الإنسان حتى يلقى الله -سبحانه وتعالى- والنعمة تامة عليه، لقد امتن الله على عباده فقال: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾** قال: ويتم نعمته، أي: يجعل نعمته عليك متصلة العطاء غير منقطعة بالانتهاء حتى تلقاه في يوم الجزاء، وإتمام النعمة على العبد من الله هي دوام الاستقامة على المنهج الحق والألوهية والعبودية حتى يلقى ربه -سبحانه وتعالى- ثم بَيَّن يعقوب أن هناك نِعَماً سالفة من الله على آباء يوسف، يعقوب، وإسحاق وإبراهيم، **﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾**، قال: على آل يعقوب جميعًا، وإذا حصلت لك النعمة فتمت النعمة على آل يعقوب بالرسالة والنبوة، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، فإبراهيم أبو إسحاق، لكن قدم إبراهيم لفضله -عليه السلام- وعلى إسحاق وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، قال: **﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾**، وقد تمت النعمة له بالخُلَّةِ أن اتخذ الله إبراهيم، خليلاً، واتخذ محمدًا خليلاً عليهم، الصلاة والسلام، فمن

كثرة منازله العظيمة أعطاه الله الحب إلى درجة الخُلة، وأحسن الحب، فهو خليل الرحمن، مُكرم الضيفان، مُكسر الأوثان، عليه الرضوان من الواحد الديانَ، قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ سمى الجد أبًا، وهذا يستدل به على أن الجد أبًا في المنزلة وفي الكرامة والحفاوة وفي الميراث إذا مات الأب قبل الجد، قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاكرام، ﴿حَكِيمٌ﴾ بإتمام النعمة والإكرام، يضعها في موضعها جل في علاه، فالله -عز وجل- له العلم المطلق والحكمة المطلقة، فالعلم المطلق له سبحانه لا جهل فيه، والحكمة المطلقة لا طيش فيها؛ ولذلك من جمع العلم والحكمة فهو العالم حقّاً.

نعود لنقول: إن النبي يعقوب أوصى ابنه وحذره يا بني، انتبه هذه نعمة من الله، وخير ساقه الله لك، أبشر سوف يتم عليك النعمة، سوف تأتيك النبوة، سوف يأتيك الملك، سوف يأتيك العطاء، من الله سبحانه، سوف تأتيك الهداية الربانية، سوف يتوالى عليك العطاء، لكن انتبه إخوانك الآن لا تخبرهم بهذه الرؤيا أبدًا، وإن أخبرتهم فسوف تأتيك مكيدة عظيمة، وسوف تقع معهم في متاعب لا يعلمها إلا الله، وهكذا يقدر الله.



- ٢ -

المُؤَامرةُ الكُبْرَى

ويخبر هذا الطفل ببراءة قلبه وطهره إخوانه بالرؤيا، فيبدأ الغيظ في قلوبهم، والحسد في نفوسهم -عليهم السلام- هذا عند القول: إنهم أنبياء، وبعض أهل العلم قالوا: إنهم لم يكونوا أنبياء، فهذا الذي فعلوه قبل النبوة، بدأت المؤامرة عندما رأوا إقبال أبيهم على يوسف، يأتي بهذا الابن الذي يحتضنه، الذي هو أجملهم وأذكاهم وأفصحهم وأنبههم، فرأى هؤلاء وهم عصبة يعني عشرة أبناء ويوسف وأخوه اثنان، رأوا هذا الأب وهو يتساهى ويغفل عنهم إلا يوسف، يذهب به إلى مصلاه فيحتضن يوسف، ويأخذ الطفل معه للمصلى، ويسأل عنه، وهذه تجتمع وتتضخم عندهم، فرؤوا أن: يدبروا له المكيدة، وبدؤوا يدبرون خيوط المؤامرة ضد هذا الابن البار، ولكن من يحفظ الطفل، إنه الواحد الأحد، مهما اجتمع العالم عليك، ومهما دبروا، ومهما نسجوا من الخيوط إذا كان الله معك فلا تخف، يقول ﷺ لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تَعَرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة** - ثم قال في آخر الحديث -: **واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك في شيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه**

الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»، فأنت إذا كنت مع الله - كما قال بعضهم - كان الله معك، فهذا الطفل الله هو الذي يتولى رعايته، إذ ليست له حراسة، وليس معه أب، ولا أخوة يشدون من عضده، سوف يبقى معهم، لكن عين الله تراقبهم وتحرسه، وتحفظه ليكون نبيّاً وملكًا.

ويؤدي رسالة الله ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ**﴾ يقول: قصة يوسف وإخوانه آيات وعلامات واضحة لمن سأل عنها، قالوا: للسائلين لكل الناس، وقال بعضهم: لأن من سأل عنها يريد أعجوبة هذه القصة، فيقول سبحانه: هذه هي الآيات وهذه هي الأدلة، وهذه هي البراهين، وإنها قصة عجيبة من أعظم القصص على الإطلاق، والعجيب أن بني إسرائيل في المدينة المنورة -قاتلهم الله ولعنهم- أرسلوا إلى كفار قريش؛ لأن كفار قريش لم يكن عندهم كتب، ولا يعرفون قصة يوسف، ولا قصة موسى ولا عيسى، كان أولئك يؤذونهم بالأسئلة؛ لأن كفار قريش لم يكن عندهم كتب فكانوا يتحدون محمداً فإذا كان نبيًا تحدوه بقصص، فيقولون: اسألوه عن قصة يوسف، وكفار قريش لا يعرفون سوى رحلة الشتاء والصيف، رعاء الإبل والبقر والغنم وبيع الزبيب والتمر، قالوا: اسألوه عن غلام ضاع عن أبيه في فلسطين ودخل في مصر وتَمَلَّكَ فيما بعد، فإن كان نبيًا أخبركم. فذهب أبو جهل وأبو لهب إلى الرسول ﷺ قالوا: يا محمد، غلام كان في فلسطين كان طفلاً، وهم لا يعلمون ما القصة، وضاع من أبيه وكان أبوه نبيًا، وذهب إلى

مصر فوجده أبوه، ثم أصبح الابن ملكًا ونبيًا ما قصته؟ قال: غدًا أخبركم إن شاء اللّه.

فالرسول ﷺ لم يراجع المكتبة العامة، ولا مؤلَّفاً، ولم يتصل بلجنة دائمة، لكنه يتصل بالواحد الأحد، هذا نبي أمي جاء لتحرير الدنيا، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإعلان أنه لا إله إلا اللّه والواحد الأحد، هذا النبي، لا يكتب حرفاً، ولم يدخل كلية ولا جامعة، إنه يتلقى العلم من عند الواحد الأحد، قال: غدًا أخبركم؛ لأنه سوف يتصل يسأل الواحد الأحد، ربي علّمني بهذا السؤال حتى لا يكذب عليه الصلاة والسلام، وفي اليوم الثاني نزل عليه جبريل بسورة يوسف كاملة، وهي من قلائل السور التي نزلت كاملة، بعض السور تنزل على عشر دفعات إلا هذه السورة من (الم) إلى آخرها مرة واحدة بقوة وإشراق وبلاغة وإعجاز، لم يختل حرفًا منها، ولم تتخلف فيها كلمة، وليس بها جملة خطأ، فيقرأ عليهم في اليوم الثاني فينقلونها لليهود، فيقولون: وأقسموا بأيمانهم واللّه ما زاد كلمة ولا نقص كلمة، لكنهم لم يسلموا، لماذا؟ أصابهم داء إخوان يوسف حسدًا من عند أنفسهم، يقول سبحانه عن اليهود: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا**﴾ أنتم يا إخوان القردة والخنازير كنتم تقرؤون في الكتب أن محمدًا سوف يبعث من العرب، وسوف يكون نبيًا، قال: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾ ما الجواب ﴿ **فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ لعن اللّه من يخفي الحقائق، لعن اللّه من يزور في الأدلة، لعن اللّه من يكذب البراهين الساطعة، فأخبرهم الرسول بذلك.

فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ تبدأ مؤامرة إخوان يوسف على يوسف، اجتمعوا في مجلس والشيطان يؤزهم، ويعقوب وابنه يوسف غائبون عن هذا المجلس، قال كبيرهم من هؤلاء العشرة: يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، أسلوب القرآن ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ﴾ (والله) هنا لام تأكيد تحتمل القسم، والله إن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا، ونحن عصبة، والعشرة أكثر من اثنين، ثم إننا ولد رجل واحد، كيف يحب أخانا يوسف أكثر منا؟! كيف يقبل عليه ويتركنا؟! لماذا هذا الهجر؟ قالوا: ويقولون ما حسد الناس أحدًا كما حسدوه عن الحب، والحب هبة من الواحد الأحد، وفي الصحيح: إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل إني أحب فلانًا يسميه باسمه الله -عز وجل- يقول: يا جبريل أحب فلانًا ابن فلان في مدينة فلان في حي فلان فيحبه جبريل لحب الواحد الأحد، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلانًا ابن فلان ليس لنسبه ولا حسبه ولا ماله، وإنما لتقواه وصدقه وصلاحه واتصاله بربه، ثم يوضع له القبول في الأرض .

فيعقوب عليه السلام أحب يوسف باعتراف الأبناء العشرة ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ ماذا يفعلون؟ قالوا: نحن عصبة؟ هنا احتمالان اثنان للاعتراض.

الأول: لماذا يحب يوسف وأخاه ونحن أبناء رجل واحد.

الاحتمال الثاني: لماذا يغلِّب القليل على الكثير، ونحن عصبة والعصبة قيل من الواحد إلى العشرة، فنحن أكثر وأنفع، كيف تحب اثنين وتترك عشرة، فالإشكال في هذه المحبة أننا عصبة ولم ننعم بالحب الشديد مثل يوسف، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، هل يعقوب -عليه السلام- ضال؟ وهو نبي، من هو الضال المبين، قال أهل العلم: هذا خطأ في التدبير فقط، لا في الدين؛ لأنه نبي، فقصدهم أن تدبيره -عليه السلام- لم يكن صائبًا ورأيه كان خطأ، كيف يقدم الكثير على القليل؟! كيف يقدم الرجل بعض أبنائه على بعض.

إذًا هناك خطأٌ في التدبير، هذا مقصدهم غفر الله لهم، كان الحسن البصري يبكي إذا قرأ سورة يوسف ويقول: لا إله إلا الله، كم ارتكبوا من العقوق، عقوا أباهم وأبكوه وأحزنوه، وأخذوا أخاهم أسيرًا ووضعوه في الجب، ثم كذبوا على أبيهم، وغير ذلك إلى أن سألوا أباهم أن يستغفر لهم من أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين هو الواحد الأحد.

قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال أحدهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، كيف يبلغ الحسد في الإنسان إلى أن يتمنى قتل محسوده، كل الناس ترضيهم إلا الحاسد، لا يرضى الحاسد إلا بزوال نعمتك، لذلك أُمِرْنا أن نتعوذ من شر حاسدٍ إذا حسد، فنعوذ بالله من الحاسد الحاقد. وجعلوا في المشورة خيارين، الأول: قالوا: اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا، لا بد أن يعدم يوسف وينتهي من بيتهم، والخيار الثاني: اطرحوه أرضًا اذهبوا به إلى أرضٍ بعيده، طفل

عمره اثنتا عشرة سنة إذا ذهب مسافة فراسخ بالأقدام لن يهتدي إلى البيت، أبهذه الطريقة يفرغ لكم وجه يعقوب؟ تذبحون ابنه وتعقونه، وتعيِّشونه في الهم والحزن إلى درجة أنه كان يبكي ويعض على شفتيه، ويريد أن يصمد، ولكن يغلبه البكاء، ثم قول: ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

قال أهل: العلم لا يوجد أشد حبّاً من الرجل إذا تعلق بابنه، فهو يصبح كالطفل إذا تعلق بأمه أو أشد، قالوا: ﴿**يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**﴾، وهذا خطأ في التدبير، كيف يصلح وجه يعقوب -عليه السلام- بعد هذا الفعل الشنيع؟!

قال: ﴿**وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾ يقولون: إذا انتهينا من يوسف وأخيه، فالأمر سهل علينا سوف نطيع ربنا، ونستغفره إن الله غفور رحيم، وسوف نعود لأبينا بعذر مقبول بأن الذئب قد أكله، كل المسألة تختصر في مأساة وعقوق وتدبير، قتل ومعصية ﴿**وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾ قال أهل العلم: وهذا أملهم بالله، ودليل على أنهم مازالوا قريبين منه سبحانه، وأن صاحب الدين مهما بلغ من ذنبه إذا كان مسلمًا فإنه يحسن الظن بربه جل في علاه، فكبيرهم الذي تكلم بهذه الكلمة، وألقى عليهم هذا الخيار، ورد عليه الآخر: ﴿**أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾ لا يعتني بالأسماء، بعضهم يقول: الذي قال هذا بنيامين، وبعضهم يقول: يهوذا أو نحو ذلك، المقصود أن أحدهم قال هذا القول وهو الذي ينفعنا، وهو فيه الفطنة والعبرة لنا، ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ**﴾ القتل صعب،

ولو قتلناه فالدم لا يضيع أبدًا مهما حاول الإنسان، وسوف يأتي الله بهذا الدم يومًا ما، سوف تبقى في مكان الجريمة أدلة وبراهين، وسوف يكتشف يعقوب -عليه السلام- ولو طال الزمن أن ابنه مقتول، ثم إن القتل صعب، وهو أخونا، فهو أرحم من الباقين، فاختار تخفيف عقوبة الإعدام إلى عقوبة التشريد والطرد والاخراج من الوطن.

قال: ﴿**لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ**﴾، في جب يعني بئر محفورة وليس لها جدار، سبحان الله ما أقسى قلب الحاسد! يأتون بأخيهم ويضعونه في بئر في ظلام الليل وبين الذئاب والوحوش، وبعيد لا أهل ولا أنيس، ولا صاحب ولا طعام ولا ماء، ومن التخطيط ألا يكون للبئر جدارٌ حتى لا يصعد منها، تكون بئراً مطوية، جوانبها من التراب، فلمَّا كُمُلت الخطة، وذهبوا به، أنزلوه فيها، فلما نزل قطعوا الحبل، لكن هناك حبل لا ينقطع، هو حبل الواحد الأحد، فهم قطعوا حبلاً من حبال البشر، لكن حبل الواحد الحي القيوم لا ينقطع، لقد كان الطفل يناجي ربه في البئر يوم ألقوه، اتصل مباشرة بالحي القيوم، قال: ﴿**أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ**﴾ يعني المكان الذي يغيِّب عن العيون، وهو الحفرة، والجب هي البئر التي لم تطوَ بحجر إنما هي محفورة فقط، وبها ماء قليل، ثم قالوا: إذا مر هناك بعض السيارة فسوف يلتقطونه؛ لأنه لا يلتقط إلا الطفل، فلو كان شابًا دافع عن نفسه ولم يسمَ لقيطًا، وكل ذلك وهو لا يدري ما سيحدث له، وليس له سلاح، ولا يدري أبوه بهذه المكيدة، قال: ﴿**يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ**﴾، قالوا: عسى أن تأتي قافلة ويأخذوه من البئر ويريحونا من هذا الذي سلب عقولنا وهو طفل بريء، ولم يسئ لهم.

﴿**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ مـا دام أنكم أصـررتم على التـخلص منه، العشرة صمموا على التخلص منه، ليس فيهم أحد قال: نرحمه، أو نتـركـه، لكن اخـتلفـوا فـي الطريقـة، وهناك مـن خفـف عنه عـقـوبة الإعدام، فـرأى أن هذا الطفل البـريء لابد أن يُشَـرَّد ويطـرد ويبـعـد عن أبيه، مادام أننا اجتمعنا على هذا القول الخاطئ، وهم يعتقدون أنه صوابًا، وفي النهاية أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه في غيابة الجب يلتـقطه بعض السـيـارة ﴿**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ انفض مـجلس المؤامـرة على إخـراج يوسف وإبعـاده عن فلسطين إلى أبعـد نقطة يمكن أن يمر بهـا المسـافـرون، حـتى يذهـب هذا الطفل إلى آخـر الدنيـا ولا يجـده أبوه أبـدًا، الآن سـيـذهـبـون بـالطهـر والسكينة إلى يعقوب ليعطيهم الطفل البـريء؛ لأن يعقوب متمسك بـالطفل في المصلى فـي النوم في اليـقظة، حتى قـال أهل العلم: إذا دعـا بطعـام، قال: أريد طعامـي وطعام يوسف، وشـرابي وشـراب يوسف، ويحتضنه ويقـول: إني أجد فيه ريح الجنة، المهم أنهم أتوا أمامه وقالوا: ﴿**يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾، أنت دائمًـا تشك فـينا، هل سـبـق لنا أن أسـأنا إلى يوسف؟ لماذا لا تتـركه مـعنا؟ فـهـو لا يجلس معنـا، ولا ينام معنا، ولا يأكل معنا، يا أبانـا نحن إخوانه تعـرف صـدقنا وأمـانتنا، لماذا لا تترك أخانا يلعب معنا ويرى جمال الطبيعة.

قـالوا: ﴿**يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾؛ ينكرون عليـه وهذا خطأ منهم، ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾، نحن نحبه، ناصـحون له في اللعب والحـضـور والغيـاب، فلماذا تخـاف منا؟! انظر إلـى اخـتيـار الكلمـات

والعناية فيه، يا أبانا مثلك لا يشك فينا على أخينا، يا أبانا اتق الله، نحن أبناء رجل واحد، وبدؤوا يطلبون الطلب، أرسله معنا غدًا فقط، يتمشى معنا ويرتع ويلعب، وقالوا: اجعله في حفظنا يرتع ويلعب؛ لأن الطفل من حقه أن يلعب، حتى في الإسلام آداب للعب الأطفال، قال سفيان الثوري لابنه: «لاعبه سبعًا، وأدبه سبعًا، وصاحبه سبعًا ثم اتركه للتجارب». ويقول ﷺ: «**أدبوا أبناءكم، مروا أولادكم بالصلاة لسبع، وأضربوهم عليها لعشر**».

وخروج يوسف مع إخوانه، لن يكون مستنكرًا عند يعقوب، ولو كان مستنكَرًا لمنعه من الخروج واللعب معهم، إنما خاف عليه قالوا: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، يرى ويلعب ونحفظه بإذن الله ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾، لا تخف اتكل على الله، قال: جاءت كلمة الحفظ؛ لأنها تشمل النصح في عدم الغش، وهنا الحفظ في الذهاب والإياب، فالنصح بالنية والحفظ بالعمل، قال: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، ثم يرد -عليه السلام-: ﴿**إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ**﴾، سوف يزيد الحسد حسدًا؛ لقد ازداد تعلقه به، وهم يزيدون حسدًا فأنا لا أصبر إذا فارقني، أحزن ويأتيني من الهم. جاء في بعض التفاسير: «أن يعقوب رأى في المنام أنه على جبل، وابنه في سهل وعشرة ذئاب، ويوسف يبكي ويستغيث بأبيه، والذئاب العشر هم إخوانه، فلما أتى الصباح وسألوه المسألة قال: أخاف أن يأكله الذئب. قال من حسن تلطفه -عليه الصلاة والسلام- ما قال: أخشى عليه منكم، فهو لم يتهمهم؛ لأنه لو قال: أخاف عليه منكم

لظهرت العداوة، قال: ﴿**إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ**﴾، مجرد ذهابكم به هو حزن لي، ثم قال: ﴿**وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**﴾، إنما قصد الذئب من دون الحيوانات؛ لأن العرب تسمي السبع ذئبًا، سواء أكان نمرًا أم فهدًا أم أسدًا، تسميه ذئبًا. قال: بعضهم: قصد الذئب دون غيره؛ لأنه مشهور عنه الغدر؛ لأن الذئب صغير الجسم لكنه غدار، يظهر لك ويعود وراءك ويغدرك، هذا من غدر الذئب، يقول الجاحظ في كتابه (الحيوان): إن الذئب إذا نام أغمض عينًا وترك الأخرى مفتوحة ينظر بها.

فالأسد والنمر أكرم نفسًا من الذئب، والذئب أخفى احتيالاً وأشد غدرًا وأخبث غريزة وهذا دليل على أن يوسف -عليه السلام- لا يزال صغيرًا، فلو كان شابًا لقاتل الذئب ودافع عن نفسه.

قال: ﴿**وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**﴾، هنا لا يتهم إخوان يوسف، وهو لا يدري -عليه السلام- أنهم هم الذئاب، الآن هم سوف يكونون في موقف الذئب خداعًا -غفر الله لهم- قال: من غفلتكم سوف تلعبون أو تتحدثونَ مَنْ يحفظ هذا الطفل الذي له عناية مخصوصة؟ وهذه تزيد مسألة الحقد في نفوسهم، فمازالت المحاورة في المجلس، لابد أن يعطوا المواثيق، قالوا: ﴿**لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾، نحن عشرة وعصبة وشجاعة، وأخونا يأكله الذئب من بين أيدينا. إذًا نحن خاسرون في أعمالنا، وعاجزون ولا رجولة لنا، كيف تقول هذا سامحك الله؟ فسوغوا له أنه يخرج معهم، وقالوا: اترك هذا الأمر لنا، ولا يجوز

لك أن تتهمنا وتظن أن ذئبًا واحدًا يمكن أن يهزم عشرة من الرجال الأبطال، إنا إذًا لخاسرون مخطئون أو عاجزون، الآن اقتنع -عليه السلام- واطمأنت نفسه وأعطاهم الطفل وخرجوا به صباحًا فذهب معهم، الأب يبكي وودع ابنه بعد أن صَدَّقهم، وأخذ عليهم موثقًا من الله أن يتقوا الله في ابنه، ولا يظن هو أنهم هم سوف يدبرون المكيدة لهذا الغلام، وطلب منهم أن يحسنوا رعاية يوسف -عليه السلام- وسلمهم قلبه، وبقي -عليه السلام- يبكي على فراق يوسف، وينتظر متى يأتي.

قال: فلما ذهبوا بيوسف -عليه السلام- وَدَّعَهُ أبوه، قال أهل العلم: فلما ذهبوا بيوسف، أخذوا يُقَبِّلون يوسف ويقولون يا أخانا.. لا تخف نحن معك نحن أخوانك؛ لأن النبي -عليه السلام- واقف أمامهم، اطمأن على ابنه، فلما غابوا عنه في الجبل أخذوا يبصقون في وجهه، هذا يجره، وهذا يقيده، وهذا يقول له: تحرك امش أسرع هذه ألفاظهم المقصودة المعنى في ألفاظ القرآن، فالقرآن الكريم أتى بألفاظ عربية، والمقصود معاني الحديث الذي يساق به القصة ويوجه به، المهم أنهم أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، ولما ذهبوا به وأبعدوا والأغنام معهم يريدون تنفيذ مخططهم، فلما أتى المساء أتوا إلى الجب التي أرادوها، وهي جُبٌّ ليست مبنية بأطرافها، بينما هي تراب، فأنزلوه بحبل، أخذ يصيح ويستغيث يا إخوتي اتقوا الله فيَّ وفي وصية أبي، يا أخوتي أرجوكم قالوا له: اتركنا أنت وأبوك الذي تركنا وجفانا بسببك،

أبوك ما عدل بيننا، أنت السبب في تفريقنا، أنت الذي كَرَّه أبانا فينا، دار هذا الحوار والطفل متعلق بالحبل، ما أقسى القلوب إذا طغى عليها الحسد، تجده يطغى على من حسد عليه ويترك حسناته، ويبدعه ويضلله ويفسقه ويحذر الناس منه عدوانًا وظلمًا وبغيًا، فلما وصل إلى القاع وصل إلى صخرة ليست بالماء فقطعوا الحبل، لكن حبل ذي الجلال والاكرام موصول، وفي الليل مع صلاة المغرب وضعوه. فلما وضعوه أوحى الله إليه وهو طفل «أنا معك يا يوسف» وهي المعية الخاصة التي قال أهل السنة: إنها معية الله بالحفظ والرعاية، فإذا كان الله معك فلا تخف ولا تخشَ غيره.

وقد نقل «التنوخي» وغيره في كتب السير مناجاة الله ليوسف، فيوسف لما وُضع قال: يا رب أنا الوحيد الليلة، يارب أنا غريب، ياربي أنا مستوحش، يارب أنا منقطع، فأوحى الله إليه: الوحيد الذي لم أكن أنا معه، والمستوحش من لم أكن أنا مؤنسه، والفقير من لم أكن أنا مغنيه، والجائع من لم أكن أنا مشبعه، يا يوسف وعزتي وجلالي وكرمي وعظمي ومجدي وبقائي لأنصرنك عليهم ولتنبئنهم بهذا الأمر ولو بعد حين، ولا جعلن العاقبة لك، والنبوة والملك، وليأتنك طائعين ذليلين، فركد قلبه، وسكن خاطره، وهدأت نفسه، ونام تلك الليلة على طرف الصخرة؛ لماذا لأنه اتصل بالحي القيوم وحده.

- ٣ -

«وَيَمْكُرُونَ وَيَمكُرُ اللهُ»

المهم أنهم أنزلوه في البئـر، وقطعوا الحبل، ثم جلسـوا حتى غـربت الشـمس، والليل أخفى كما تقول العرب، فأتوا في الليل المسألة على أبيهم وتختلط عليه الأمور، ولا يكون الأمـر واضحًا، فأتوا بثوب من ثياب يوسف -عليه السلام- قالوا: فخلعوه وذبحوا شاة، ولطخوا الثوب بدم شاة وأتوا بعذر كاذب لا يقبله إنسان عادي فضلاً عن نبي مكرم أطلعه الله على علم الغيب.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾، والليل دائمًا هو مظنة لمن أراد أن يمثل، أو أراد أن يأتي بأعذار، حتى إنه يخفي في الليل الأفعال، يقول: إن الذئب يغدر بالليل، وإن السارق يسطو على البيوت في الليل، فلم يأتوا صباحًا ولا ظهرًا ولا عصرًا أتوا عشاءً، وأبوهم الشيخ الجليل جالس في بيته ينتظر فلذة كبده يأتي.

فدخلوا على أبيهم عشاءً يبكون، فبكوا، ولكن لا يخفى بكاء الصادق من الكاذب، كان أولياء الله -عز وجل- يبكون بكاءً صادقًا، وسيدهم محمد ﷺ كانت عيناه تذرفان إذا حضر الجنازة، وإذا سمع القرآن يتلى عليه، ويبكي على المنبر إذا وعظ الناس ﷺ. فبكاؤه البكاء الصادق، فهو أصدق الصادقين، وتبعه أصحابه، منهم

من بكى حتى كادت أضلاعه تختلف، ومن الناس من بكى رياءً وحبّاً للدنيا.

دخلوا وهم يبكون، وجلسوا أمام أبيهم، ثم قدموا له القميص دليلاً على صدقهم، وأن الذئب أخذ يوسف من القميص وقطعه، فأكله وبقي القميص وأتينا به، ولطخوه بالدم ونسوا أن يمزقوا القميص، فالذئب لابد أن يمزق القميص قبل أن يأكل الآدمي، أخذ يعقوب القميص ونظر إليه، ونظر إلى الدموع الكاذبة، والله أطلعه - سبحانه وتعالى - لا تخفى عليه خافية، ثم قالوا: يا أبانا اسمع المصيبة التي حلت بنا، وما كانت في الحسبان أن يحصل ما حصل، أخذنا أخانا الحبيب إلى قلوبنا ليرتع معنا ويلعب، وذهبنا نستبق وجهزوا كل شيء وأجمعوا على هذا الكلام هم العشرة، قالوا تركنا يوسف عند متاعنا عند ثيابنا وبعض الأغراض، ونسيناه وذهبنا نستبق، قال أهل العلم: ننتظم، وقال بعضهم: بل يجري بعضنا مع بعض أيُّنا أسبق، وقالوا: نتصيد، قال صاحب زاد المسير: لكن الظاهر أنهم يتسابقون فيما بينهم أيهم يكون أسبق، والسبق هذا سنة وسابق ﷺ عائشة كما جاء في السنة.

قالوا: ذهبنا يا أبانا نستبق، ونسينا يوسف عند ثيابنا يحفظ الثياب، وتركناه عند متاعنا فأكله الذئب، وكان يعقوب - عليه السلام - أول ما بدأ بالكلام مع أبنائه قال: أخاف أن يأكله الذئب، قالوا: وجدنا الحل.

قالوا: إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، ولكن المريب والكذوب في نفسه هو أول من يكذب نفسه فليس متيقنًا ولا معتقدًا لصحة كلامه، يشك فيه دائماً، حتى يقول المتنبي:

إذَا سَاءَ فِعْلُ المرْءِ سَاءتْ ظنونه
وصَدَّق مَا يَعْتَادُه مِنْ تَوَهُمِ

المهم أنهم قالوا لأبيهم: إنك لن تصدقنا حتى لو كنا صادقين، ومتوقعين أنك لن تقبل أدلتنا، لكن ماذا نفعل؟ الذئب أكله، وجاؤوا على قميصه بدم كذب، ومن الغرائب قال ابن عباس: بدم كذب الدم الكذب هو الدم الجامد. لكن الصحيح أنه ليس بدم يوسف، ولكنه دم شاة، فالدم يشهد أنه ليس بدم يوسف، وكذلك القميص وعرضوه على أبيهم.

قال يعقوب: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾ والله إن النفس لأمارة بالسوء، فقد سولت لكم أنفسكم وزينت لكم فعلاً ومعصية وعقوقًا لي وإفسادًا وإجرامًا في حق يوسف، قوله: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾، هذا هو الصحيح في الأمر، بل أنتم الذين أقدمتم على هذا الأمر بتسويل النفس؛ لأن النفس أمارة بالسوء، تسول لصاحبها فعل الشر، وترك الخير، وترك المحرمات، وترك عمل الطاعات، هذه النفس السيئة، والنفس ثلاثة أقسام: نفس أمارة، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة، فالنفس الأمارة هي نفس الفاجر التي لا تأمره إلا بسوء، فحالته متقلبة متحولة من تَرْكِ صلاة إلى فعل معصية إلى ارتكاب محرم، لا تدعوه إلى فضيلة ولا

طاعة ولا خير ولا بر ولا دين ولا خلق جميل ولا تواضع ولا صدقة، هذه النفس الأمارة نعوذ بالله منها ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ والنفس اللوامة بَيِّنَ بَيِّنَ يفعل الإنسان معصية فتلومه، ففيها شر وخير، قال الحسن: «لا تجد نفسي إلا لوامة، لم تكلمت بتلك الكلمة، لم قلت ذلك القول، لم وقفت ذلك الموقف». وأما النفس المطمئنة فهي التي رسخت بالخير وفعل الخير حتى أصبحت ما تأمر صاحبها إلا بالخير ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ قال: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾ لأن النفس أمارة بالسوء والهوى والشيطان والدنيا، فهنا قال: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾، اسمع إلى منطق الأنبياء -عليهم السلام- قال: فصبرٌ جميلٌ ما أحسن هذه الكلمة ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ وهي وثيقتك ولافتتك في الحياة إذا مرت بك صعوبة أو مصيبة أو كارثة أو نكبة، فقل: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ قال: أما أنا سوف أستقبل هذه الكارثة بصبر جميل، ماذا يفعل الشيخ الكبير؟ هل يلحق هؤلاء بهذا، هل يبحث في الصحراء عن ابنه؟ قال: فصبر جميل، قالوا الصبر الجميل لا شكوى فيه ولا توجع فيه، على أحد﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ لن أعرض أمري على مخلوق مثلي؛ فإن الخلق مصدر الضعف والهزال والحاجة والفقر، إنما أعرض مشكلتي ونفسي وحزني على القوي المالك المقتدر مصرف الأمور لا إله إلا هو، يقول ابن تيمية. عن وقفات القرآن، في القرآن هجر جميل، وصبر جميل، وصفح جميل، فالصبر الجميل

لا شكوى فيه، والصفح الجميل لا أذى فيه، والهجر الجميل لا عتاب فيه.

قال: فأنا أستعين بالله على ما دَبَّرتم أو على ما فعلتم، فالله المستعان وأرد الأمر إليه، وسوف تأتي كل النتائج لصالح يعقوب ويوسف، ولكن مع الأيام سوف يأتي الفرج، وسيطل الفجر على النبوة والملك.

أما يوسف -عليه السلام- فجلس في البئر متصلاً بحبل الله، بعد أن قطع إخوته حبلهم، وقد أنزل الله عليه السكينة، وأنزل عليه لتنبئنهن بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، يقول: أبشر بعد سنوات سوف يأتون ذليلين تائبين عندك ويعلنون الاعتذار، ويتم لك الأمر واجتماع الشمل -بإذن الله-؛ لأن الأمور بيد الله، لا يُدَبَّر أمر في الأرض إلا بإذن مَنْ في السماء، لا إله إلا هو.

قال سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ يوسف -عليه السلام- في البئر على صخرة، وينتظر أمر الله، وفرج الله، والله يطعمه ويسقيه ويكلؤه ويحفظه، وفي الصباح جاءت قافلة، سميت هذه السيارة على اللفظ الأول قافلة تسير، يعني جماعة من الناس يسيرون نزلوا بجانب البئر، وكل ذلك بتدبيرٍ من الله -سبحانه- فهو الذي أتى بالسيارة، قال: فنزلوا بجانب البئر، وقالوا لأحدهم: خذ هذا الدلو، واجلب لنا الماء من البئر، فأنزل الدلو، فخرج مع الدلو أعظم سجين، وأكرم سجين، وأشهر سجين في التاريخ، رجل سوف يكون نبيّاً وملكًا من أعظم ملوك الأرض -عليه السلام-،

فلما رأى يوسف الدلو أقبل تَعلَّق بالحبل، وصاحب الدلو ينتظر امتلاء دلوه بالماء، وإذا بغلام كفلقة القمر قال: يا بشرى هذا غلام، نزلنا نريد ماءً، وأتانا غلام بهذا الجمال، فما هذا الإشراق؟ وما هذا النور؟ وما هذا الفتح؟

رجع صاحب الدلو إلى القافلة، وقال: يا بشراكم هذا غلام، قال سبحانه: ﴿ وَأَسَرُّوهُ﴾، يعني أخفوه، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، قال بعض المفسرين: إن إخوان يوسف رجعوا فيما بعد وأخذوا يوسف وباعوه، وهذا عندي بعيد، والصحيح أن بعض القافلة باعوه على بعض، وهذا الذي جاء بالدلو أخفاه وجعله في طرف المخيم، وجعله بضاعة عنده.

ثم مشت القافلة، إلى مصر من أرض فلسطين، ووصلوا إلى السوق في مصر، وانظر إلى هذه الفُرقةِ بين الأب والطفل ووصلوا إلى السوق، ودخلوا في سوق الرقيق؛ لأن السوق أقسام: سوق الغنم، وسوق الكساء، وسوق الرقيق، دخلوا بيوسف سوق الرقيق وهو الذي آتاه الله شطر الحسن الذي رفعه الله في السماء الخامسة أو الثالثة، الآن هو هناك، فقالوا: من يشتري الغلام؟ فأتى أهل مصر، وممثل ملك مصر لحكمة الله، والله يحبكها حتى يدخل القصر، جاء ممثل العزيز ليشتري من السوق، ووجد أن الحر إذا أرادوا بيعه أصبح رخيص الثمن، وعلم أن القافلة تريد بيعه بأي ثمن، فعلم بالأمر واشتراه بثمن بخس، أخرج المشتري الدراهم، وقال لصاحب القافلة: أنا أشتريه. لي بكم؟ قال بعضهم: باثنين وعشرين درهمًا، وقال بعضهم: بأربعين درهمًا، والقرآن قال: ﴿دراهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، فلماذا نتكلف أشياء ما أنزل الله بها من سلطان.

ويُأخذ يوسف من سوق الرقيق إلى القصر، لكن يذهب به إلى القصر ليحكم هو، وتأتيه النبوة بالقصر، ويحكم الدنيا من القصر، فلذلك لا تكترث للنكبات، ربما طريق الفوز والفلاح هو طريق المشقة والعنت، وهنا أُخِذَ يوسف من السوق وكانوا به زاهدين، ولم يحرصوا على قيمته لكن الله رفع قيمته على كل الناس في عالم زمانه.

ووصل الآن إلى عزيز مصر وامرأة العزيز في البيت، وأدخلوه على العزيز فرآه العزيز فهاله المنظر، ودُهش وتعجب من هذا المنظر، وهذا الإشراق، ومن هذا الذكاء، ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ أكرميه في المنام وفي الطعام، واحرصي عليه من دون باقي الرقيق الآخرين، هذا له مكانة أخرى، قال ابن مسعود عند هذه الآية: أفرس الناس ثلاثة: العزيز لما قال لامرأته أكرمي مثواه، فهي فراسة، وأتت فيما بعد أنه نبي وملك، والثاني: بنت شعيب عندما قالت لأبيها عن موسى: استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. والثالث: أبو بكر حين اختار عمر للخلافة؛ لأن أبا بكر لما أتته سكرات الموت وانتهى من هذه الحياة بعد العدل -رضي الله عنه- قال لكاتبه اكتب: وقد وليت الخلافة من بعدي عند هذا المقطع أُغْمي عليه كأنه مات، فأتى الكاتب وهو عثمان وكتب وليتها لعمر بن الخطاب، ثم أفاق أبو بكر يسأل من كتبت يا عثمان، قال: عمر بن الخطاب قال: «أحسنت فهنا وفق».
قال العزيز لامرأته: أكرمي ضيافته واجعلي له ضيافة مخصوصة تختلف عن باقي الولدان والغلمان الذين في القصر، اجعلي له

فراشًا ومكانًا وثيابًا مُخَصصة له، وخففوا عنه العمل، فهذا ذكي أتوسم فيه أن يكون له مستقبل، فأخذت تكرم مثواه، وقال ﴿**عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا**﴾، قيل: ينفعنا في الأخذ والعطاء، وقيل: في الكتابة، وقيل: ننتفع بثمنه، ذكر بعض المفسرين: أن نبيعه إذا كبر. والله أعلم، ﴿**أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾، وقال لها: أنا وإياك لا يولد لنا ولدٌ ولا بنتٌ، قيل: كان لا يأتي النساء، وقيل: كان حسورًا. وقيل: كان عقيمًا. هو ملك مصر (العزيز) قال: هذا سيعوضنا إذا كبرنا باتخاذه ولدًا.

قال: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ**﴾، قال: أرض مصر؛ لأنها أرض مباركة في أوسط الدنيا، وفيها النيل، وفيها العزيز، وكانت في تلك الحقبة، فيها حضارة، وهي عاصمة الدنيا في ذلك الزمن، ولنعلمه من تأويل الأحاديث، قيل: الأحاديث إما عواقب الأمور، أو تعبير الرؤيا، أو تفسير العلم ومفرداته، كل هذا قيل.

ثم قال سبحانه: اسمعوا الشاهد: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ هذه قاعدة وسنة ثابتة، قالوا: الله أمره يغلب على كل أمر، وتنفذ مشيئته على كل مشيئة، فمن ذلك أن يعقوب قال لابنه: ﴿**لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ**﴾، فغلب أمر الله فقص رؤياه، إخوة يوسف أرادو أن يقنعوا أباهم، ويأتوا بعذر يقبله، فما فعل، ولم يقبل حجتهم ولم يوافقهم على هذا العذر، ومن غَلَبة أمر الله -عز وجل- أن يعقوب أراد أن يحتفظ بيوسف فقال: ﴿**وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ**﴾، وأراد أن يمسكه عنده ويحفظه فغلب أمر الله

فأرسله معهم، ومن أمره -سبحانه- أن أتى رجل آخر لشراء يوسف فغلب أمر الله فأتى العزيز واشتراه ليدخل القصر، واتهمته المرأة فغلب أمر الله فخرجت له البراءة، وسجنوه فغلب أمر الله فخرج بريئًا، وقال للذي معه في السجن ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾، أي: اشفع لي عند الملك، فغلب أمر الله فنسي.

الآن أصبح يوسف - عليه السلام- في القصر يأكل ويشرب، ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**﴾، قيل: بلغ الحلم -عليه السلام-، وقيل: ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: أربعين سنة، والله أعلم، إنما الشاهد أنه بلغ القوة، وأصبح مدركًا وأصبح قادرًا على فهم ما يوكل إليه، وما يسند إليه من المهمات، لما بلغ أشده جسمًا وعقلاً ﴿**آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾، الله الذي آتاه ذلك وحده، وعلَّمه سبحانه، آتيناه حكمًا وعلمًا، قالوا: فقهًا وعقلاً، وقيل: نبوة وملكًا، وقيل: علمًا وعملاً. وكلها تدخل في ذلك، إنما آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهناك علم بلا حكمة ويكون في طيش، لكن يوسف -عليه السلام- آتاه الله علمًا بحكمة، فالعلم بالحكمة هو الذي يردعك عن الخطايا والزلات، ويحملك على ما يُحمل من الأفعال الجميلة، ويبعدك عن الفعال القبيحة، والعالم الحكيم هو الذي يفعل المأمور، ويجتنب المحظور، ويصبر على المقدور، فمن تعلم العلم، وعمل به وعلَّمه الناس، وصبر على الأذى في ذلك فهو عالم حكيم.

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ونبوة وملكًا وفقهًا ودراية وعلمًا بخزائن الأرض، حتى إنه لما كان في السجن وضع لهم الخطط التي تحفظهم مستقبلاً حتى لا يفنى الحرث، ولا يفنى النسل، ولا الخلق ولا الحيوانات، وكل ذلك بفتوى منه، وتعبير رؤيا، ويعيش الناس على هذه الرؤيا على سبع سمان، وسبع عجاف، وهي سبع سنوات فيها رخاء وسبع سنوات فيها شدة، فأيُّ بصيرة هذه، وأيُّ حكمة هذه إن لم تكن بتأييد من مدبر الأمور، ومصرف الأقدار.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه قاعدة مطردة من أحسن معاني العبادة والتوجه والصدق مع الله والجهاد، فالله جعلها قاعدة، وكذلك نجزي المحسنين، الله ينصر من ينصره، انصر الله ينصرك، انصر الله على نفسك الأمارة بالسوء، انصر الله في دينك، بأن تكون صاحب رسالة لا تكن سلبيّاً، إن كنت كاتبًا انصره بقلمك، سخر قلمك في نصرة الدين، فالله سينصرك ولن يضيعك.

- ٤ -

المَوْقفُ العَظَيمُ والابْتلاءُ الأَعْظَمُ

ترعرع يوسف -عليه السلام- في القصر ونعيمه، وأصبح محبوبًا عند العزيز وعند زوجته، والآن تأتيه البلوى ليطهره الله عز وجل، وليحفظه؛ لأنه حفظ الله -عز وجل- فحفظه ربه -تبارك وتعالى-، ويمر في فصل من فصول حياته ليتطهر وليصبح في سجل الخالدين، الأنبياء المرسلين عليهم السلام، قال سبحانه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ بعد ما كان في القصر، وأصبح - عند بعض المفسرين - في العشرين أو الخامسة والعشرين الله أعلم، إنما القرآن أخبرنا أنه في تلك الحالة رغبت فيه امرأة العزيز، وطمعت فيه وأحبته وتعلقت به، وأتت إليه ورغبت فيه، هي الآن التي تطلبه وهو المطلوب، وهي التي تجري من ورائه وهو الذي يهرب منها، وانظرو إليه، شابٌ ليس بكبير حتى يكون عنده عزوف عن النساء، إنما شاب متوطد الحيوية تام البنيان -عليه السلام- ثم هو أعزب ليس عنده زوجة حتى يطفئ شهوته في المباح أو الحلال، ثم هو غريب، والغريب كما يقول ابن تيمية: الغريب لا يأنف من العار. ثم هو مدعو من المرأة، فليس هو الطالب، ثم هي جميلة، وانظر إليها ملكة في بيت الملك، وكيف يكون اختيار الملك العزيز لزوجته، إلا أن تكون جميلة باهية مغرية، زد على ذلك أنه

-عليه السلام- لما دعته كانت ذات منصب، وذات المنصب والجمال تكون مغرية أكثر، فهي تتمكن من القرار، وتتمكن من رفع العقوبة، ومن كف الاعتداء عنه لو حدث ذلك، وزد على ذلك أنها ذات مال، فهي ثرية ملكة تملك بالدراهم والدنانير والذهب والفضة والمجوهرات، وزيادة على ذلك أنها غَلَّقَت الأبواب وحاصرته من كل جانب، حاصره الشباب والعزوبة والغربة والجمال والمال والمنصب، وغَلَّقَت الأبواب، لكن هناك باب لم تغلقه وهو الباب الذي بينه وبين الواحد الأحد، تستطيع أن تختفي عن العيون، إلا عن الواحد الأحد -عز وجل-، تستطيع أن تتستر بحيطان وجدران إلا عن الذي يعلم السر وأخفى، تستطيع أن تخفي فعائلك وأسرارك عن كل أحد إلا الواحد الأحد، ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ الذي يعلم السر وأخفى.

قال: ﴿**وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ**﴾ وأسلوب المبالغة هنا يدل على أنها حصنته، حتى تتمكن من يوسف -عليه السلام- فلما غلقت الأبواب أتت بزينتها وفتونها وجمالها وإغرائها وبهجتها وذهبها وعطرها، وتعرضت له أمامه وقالت: ﴿**هَيْتَ لَكَ**﴾ أي: تعال وأقبل أريدك وأريد منك ما تريد المرأة من الرجل، فلما اعترضت أمامه، قال وصاح بصوته: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ**﴾، ما أحسنها من كلمة أيها الجيل!! هل لنا أن نحفظ هذه الكلمة، ولو لم نستفد من الدروس إلا معاذ الله اعتصمت بالله، التجأت بالله، أعوذ بالله أن أقع في غضب الله، أعوذ بالله أن أحارب الله معاذ الله، ما أحوج الجيل إليها والفتنة

تُعرض أمامه في القنوات وفي المسلسلات، وفي المجلات الخليعة التي تبث الرذيلة، وتدغدغ المشاعر وعواطف الشباب، ما أجدر الفتيان والفتيات أن يقولوا: جميعًا معاذ الله، فإذا رأيت صورة باهتة تدعوك إلى الفاحشة فقل: معاذ الله، وإذا سمعت صوتًا مريبًا يدعوك إلى المعصية فقل: معاذ الله، من الذي يحول بيننا وبين المعاصي إلا الواحد الأحد.

المهم أن المرأة أقبلت إلى هذا الشاب الأعزب الغريب بكامل زينتها، ملكة ذات منصب ومال، وهي تتصرف في القرار، وغَلَّقَت الأبواب، ويقول: معاذ الله، يهرب وتلاحقه، ويفر منها وتسعى خلفه، ويصيح في البيت «معاذ الله» قال يقول: **﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾**، قال بعض المفسرين: إن العزيز زوجك أكرمني، ولا يليق بي أن أخالف هذا الإكرام، كيف يسكنني في القصر، ويكسوني ويطعمني ثم أخالفه على زوجته هذا لا يليق بي، وقال الجمهور وهذا الصحيح: **﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾** وقصده الله -عز وجل- الذي خلقني فهو يهديني، الذي سوى سمعي وبصري وقواني، وأعطاني وهداني وحفظني وتولاني وناصرني وآواني، معاذ الله، كيف يارب أن أفعل معصية، كيف أقابل ربي بأن أخون أمانته؟ كيف أجحد معروف ربي عندي؟ كيف أكفر إحسان ربي عندي؟ إنه ربي أحسن مثواي؟ إذا اقتربت من معصية فتذكر عينيك من وهبها لك سوى الله، أذنيك الذي أسداك إياها الله

الواحد الأحد، جلدك الجميل، شعرك الوافر، الحياة، الإسلام، الطعام الشراب، من وهبك القدمين، وقواك وهداك وقوم عوجك أفجزاء هذا النعيم أن تعصيه جل في علاه.

قال: ﴿**إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾، يعني أكرمني وأحسن منزلتي وحباني وأعطاني، فلا يليق بي أن أتنكر لعطائه ولا جميله جل في علاه.

فقال بعضهم: هَمَّ أن يضربها، وقال بعضهم: ﴿**وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ لما هَمَّ بها، إذًا فينفون الهم عنه، وهذا بعيد أيضًا لا يتسق مع اللغة ولا الشرع، وقال بعضهم: هَمَّ أن يفر، قالوا: لو كان هذا بُيِّن في القرآن، والقرآن على ظاهره الذي يفهمه الناس بثقة في عقولهم والصحيح: أن نفسه -عليه السلام- حدثته ومالت ولم يعزم ميول البشر، وميول الإنسان، وإن أتى في نفسه الخاطر وهو يرى الجمال، ويرى هذا الإغراء ويرى هذه الفتنة، فأتت بشريته وإنسانيته تحدثه من الداخل، ومالت نفسه ولكن الله عصمه -جل في علاه-، وهذا الهم لا يؤاخذ عليه العبد؛ لأنه ليس جزمًا، وليس إصرارًا، وليست إرادة جازمة، فهو قد حدثته نفسه كالوسواس، وأتى في خواطر داخلية، خاطره مال إليها؛ لأن القرآن قال: هكذا ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**﴾ فلا بد أن يكون هذا مثل هذا، لا تفصل همَّت به وهمَّ بها في المعنى، هذا هو القرآن، وهذا من عظمة يوسف أن يَهِم ثم يغلب سلطانه وإيمانه وبرهان ربه على نفسه التي همَّت فينتصر بإذن الله، فوجه الكلام على هذا يتضح لك، وهذا الذي رجحه الطبري وكثير من المفسرين، منهم وهو

الصحيح -إن شاء الله-، همَّ بها ولكن لم يعزم ولم يجزم، وما أقوى الإرادة عنده، إنما هو مجرد هَمٍّ، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿**لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾، فلما رأى برهان ربه لم يقدم بل أحجم واستغفر وتراجع وتوقف، فما هو برهان ربه؟ قالوا: رأى صورة يعقوب أبيه وهو يعض إبهامه. وهذا بعيد، وبعضهم يقول: إنه رأى صورة جبريل يصيح به يقول: يا يوسف لا تزنِ، فإن من زنا كالطائر الذي ينتف ريشه. وهذا بعيد، وقال بعضهم: أتت امرأة العزيز إلى صنم في البيت وسترته، قال: لمَ تسترين هذا؟ قالت: أخاف أن يراني، قال: أنت ربك صنم جامد حجر تسترينه وربي السميع البصير لا أخاف منه. وهذا بعيد، والصحيح أن برهان ربه واعظ الله في قلبه، ومعرفة علم الحلال والحرام، وقيام الدليل على قبح الزنا، وهو محرم، والواعظ استقام في قلبه، البرهان قام في قلبه، خشية الله وتقوى الله، فلما رأى برهان ربه وقف ﴿**لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ يعني: أبصر الحق، وأقام الله الحق في نفسه بأدلة قاطعة على حرمة الزنا.

فيوسف - عليه السلام - رأى برهان ربه قال سبحانه: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ**﴾، فيوسف -عليه السلام- هذا مجتبى ومصطفى ليكون نبيًا -عليه السلام-، وليكون رسولاً لأمة، وليوليه الله الأرض، وليكون عالمًا وقائدًا وإمامًا، فأراد الله أن يطهره، وأن يحفظه ليكون قدوة للناس وأسوة للعالم.

قال: ﴿**لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ**﴾، فمن الذي يصرف عنه السوء؟ الله هو الذي يصرف السوء. فنسأله أن يصرف عنا السوء

والفحشاء. قيل: السوء عمل اليد بالخطأ على الغير، والفحشاء عمل الفرج. وقيل: السوء ما يحدث به القلب من السوء، والفحشاء ما يفعله الفرج. وقيل: السوء الظلم، والفحشاء الفاحشة، المهم أن الله صرف عنه السوء فلم يظلم، وصرف عنه الفاحشة فلم يزنِ، ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، ما هذه العناية عناية في البيت، وعناية في الصحراء، وعناية في القصر، وعناية في الفطرة، وعناية في الغنى، فلذلك الْتَزِم حبله -سبحانه- ليجتبيك ويحفظك في كل مكان، قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾، نحن نصرفه عنه، وإلا الإنسان لوترك بعقله وتفكيره لضاع، مسكين هذا الإنسان، والله لو تُرِكْنا لأهوائنا ونفوسنا وأفكارنا وليس معنا لا صلاة ولا قرآن ولا أذكار ولا عبادة لنضيعن، ولذلك لا تشمت بأحد وقع في معصية أو فاحشة، فأنت من أنت؟ فالله -عز وجل- بقدرته يستطيع أن يرفع عنك الحصانة والتقوى والرقابة فتقع في أدهى ما وقع فيه ذاك.

يقول: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ هذا عبد لنا نريد أن نخلصه وأن ننقيه وأن نصفيه ليكون من المخلصين، هذا الشاب النقي التقي، الخائف من ربه، الهارب من المعصية يسعى يريد الباب ليخرج وهي تسعى تلاحقه، فهو يفر وهي تلحقه.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أسلوب القرآن هكذا، فلما وصل إلى الباب قبلها سحبت قميصه من الوراء فقدَّته، والتفاصيل هذه لا يأتي بها القرآن، بل بأصل القصة ومسارات الحديث الواسعة المفهومة الجملية المعلومة، فلما وصل الباب قدت قميصه من رغبتها فيه،

وهو يهرب -عليه السلام- قال: معاذ الله، معاذ الله فوصل هناك، ووصلت وراءه وهي خلفه تمسكه وتدعوه، فسحبته وقَدَّت قميصه من الوراء، يقال: قَدَّ القميص قداً، يستعمل القَدُّ في القميص، والشق في القماش الذي لم يفصل؛ لأن أسلوب القرآن لا يدركه إلا من يعرف جلال هذا القرآن وجماله.

قال هنا: ﴿**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ**﴾، يقول الشعبي: يوسف قصته في القميص، الآن القميص قدته، وأتى إخوانه بقميصه، وأتوا على قميصه بدم كذب، وهناك شق قمصان، ولما أصبح في مصر حاكمًا أرسل قميصه فهي ثلاثة قمصان، هذا قميص التهمة، وقميص الريبة، وقميص النجاة والفلاح والنهاية والانتصار، فقصته في قميصه -عليه السلام-، وموسى قصته في عصاه، ومحمد قصته في قرآنه ﷺ، هنا قال: ﴿**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ**﴾ أي: لما وصل إلى الباب شقت القميص، والباب كان مغلقًا بل: محكم الغلق، ويوسف -عليه السلام- يريد أن يفر من الباب ففتحه -عليه السلام- بقوة، وإذا بالسيد الزوج عند الباب، تصور المشهد، وانظر كيفية نقل القرآن لهذا الحدث، فقصة يوسف من أعظم القصص العالمية في تاريخ الإنسانية من الشرق إلى الغرب، من عهد آدم إلى أن يرث الأرض ومن عليها، لكنها نقلت بإثارة وجاذبية وتشويق وجلال وبيان، فلما فُتِح الباب، انظر إلى البديهة عند هذه الملكة، وقوة الذاكرة والاحتيال -سبحان الله- إن كيدهن عظيم، فرأت زوجها وهو واقف يشاهد المشهد، ﴿**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً**﴾،

تقول: تغيب عنا، ولا تتقي الله فينا، وتسلمنا لهؤلاء، هذا أكرمناه وأدخلناه القصر ثم يعود ويفعل بنا ما يفعل، يريد أن يحطم كرامتي، ويحطم أسوار مجدي أنا الملكة بقصري، قالت: ﴿**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً**﴾ قال المفسرون: هذا من ذكائها؛ لأنها كبيرة وفاهمة وملكة ما تحيرت في الجواب، ما قالت عفواً أو سامحنا أو أخطأنا أو هربت. هي تقول: إنني أهلك والواجب أنك تنتقم، قالت سوءاً؛ يعني: فاحشة، الآن تقترح على العزيز؛ لأنه حاكم القصر وحاكم مصر، قالت: ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ**﴾، ما قالت: يقتل؛ لأنها تحبه، إلا أن يسجن. بدأنا الآن في السجن، الآن يأتي حديث السجن ليدخل السجن أعظم سجين في التاريخ، كما سجن بعده ابن تيمية، والإمام أحمد، فهما من أتباع يوسف -عليه السلام-، فيوسف دخل السجن، لكنه دخل شريفًا صاحب دعوة، صاحب ميثاق رباني، مكث في السجن سبع سنوات.

وكانت تقول لزوجها: اسجنه، فأنا لا أتنازل عن حقي، أنا أطالب بما انْتُهِك من حق القصر والمروءة، من حقي أن تسجنه، أو عذاب أليم، قال المفسرون: العذاب الأليم إذا ذكر مع السجن، يعني: الجلد، إما أن تسجنه الآن أو الخيزران أو عذاب أليم، يعذب بأنواع العذاب: فأتى المظلوم والمفترى عليه -عليه السلام- مظلوم في طفولته، مظلوم في الجب، مظلوم في الصحراء، مظلوم في القصر، مظلوم في السجن، وسوف ينتصر ويكون حاكمًا ونبيّاً ومرسلاً وملكًا مؤيدًا من الله الواحد.

قال المظلوم -عليه السلام-: ﴿**هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**﴾، والله إنها بلتني بنفسها، والله إنها تعرَّضت لي، والله إنها ظلمتني، يا رب أنت تعلم ما حلّ بي، يا رب ضاقت بي تبتليني في قصرها، وتغلق عليّ الباب، وتغريني ثم تشكوني وهي المصَدَّقةُ في القصر، ملكة وذات منصب، وذات جمال، وذات مال، ﴿**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**﴾، طلبت هي الفاحشة مني، وأنا أبيْتُ ورفضت.

فكروا ماذا يفعلون؟ قال رجل في القصر وقيل: كان طفلاً في الفناء الداخلي والله أعلم، لا يهمنا الشخص إنما هو شاهد من أهلها من قرابتها كانت له حكمة، ورأى المشهد الملك حيران ويصيح: عرضي زوجتي ينتهكها هذا الغلام، ويوسف -عليه السلام- يصيح: هي راودتني وأنا مظلوم، وهي تصيح أنا مظلومة وأراد بي سوءًا. قال الحكيم في القصر: أنا آتيكم بحل المسألة، أنا أقدم إليكم أطروحة اقبلوها مني هذا اليوم، قالوا: قل، قال: ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾، بدأ به لأنها هي المصَدَّقة عندهم، هي صاحبة القصر والملكة، فبدأ بها؛ لأنها تمتنع منه وقد انشق قميصه من أمامه؛ لذلك فهي صادقه، وهو مقبل، ولذلك إذا انشق القميص من الأمام فالمرأة صادقة وهو من الكاذبين، أجاره الله من الكذب، ﴿**وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ**﴾ إن كان قميصه مشقوق من الوراء والخلف فهو رجل صادق يفر منها وهي تلحقه، إذًا اعتدت عليه وتجرأت عليه ﴿**فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾، قال الملك: صدقت هذا الحكم معقول؛ لأن القرائن يأخذ بها، وما دام

أن هذا رجل عاقل وحكيم فيأخذ حكمًا غيابيًا؛ لأنه ما رأى فسمي شاهداً، قال: فأتى الملك. قال: قبلته، فلما رأى الملك قميصه قُد من دبر قال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، يقال: إن الملك ما كان عنده غيرة كثيرة، فلم يأخذ سيفًا ولا رمحًا، بل قال: هذا من كيدكن أنتن، ثم قال الملك، وقيل غيره: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، ولم يحاسبها على شيء. قال: انتبهوا ولا تعودوا إلى مثل ذلك مرة ثانية، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يقول ليوسف: أرجوك لا تحدث بذلك؛ لأن القصر له احترام مخصوص، والبيوت لها أسرار، أرجوك لا تتحدث عن هذا، فينقل في مصر وينقل بين المواطنين، وتصبح السيرة فيها نظر.

قال الملك لزوجته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾، وأنت يا يوسف أعرض عن هذا، ويظهر أنه مال الآن إلى تصديق خبر يوسف، وقامت القرائن؛ بأن يوسف صادق، قال: ما دام أنك صادق نريد منك مطلبًا واحدًا، لا تنشر هذا الخبر الذي وقع في بيتنا وقصرنا، اسكت حتى لا يسري الخبر، وأما أنتِ فالظاهر هذا الميل وقع منك فاستغفري لذنبك، ولا يغفر الذنوب إلا الله -سبحانه وتعالى-، ثم قال: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، قيل: الملك أو الحاكم إنك ضللت الرشد، إنك أسأت؛ وتجنبت الصواب، إنك ارتكبت الخطأ في حق هذا الشاب الطاهر الجليل يوسف -عليه السلام-، وكلكم خطاء وخير الخطائين التوابون، إنك كنت من الخاطئين.

انتهينا الآن من القصر وما جرى فيه من حكم، والحكم يشبه حلاً نظريًا لا سجن ولا جلد، إنما أنت اسكت وأنتِ استغفري ،

قـال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، يقول المفسرون: إن الخبر لم يكتم لكن ليس من يوسف، بل من الحرس والخدام والحجاب انتشر الخبر في مصر بسببهم.

المهم أن الخبـر والإشـاعة انتـشـرت في مـصـر، قـالوا: ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، يا للمصيبة الملكة عندها غلام وتحبه فقد شغفها حبّاً وأسرها بجماله، العاقلة تفعل ذلك وتجد كثيرًا من الناس يفـعل ذلك، ووقع في ذلك، قـالـوا: امـرأة الـعـزيز تراود فـتـاهـا عن نفسـهـا والله إنها ارتكبت خطأ، وإنها أسـاءت لسـمـعـة القـصـر وسـمـعـة الدولة بأسـرها، وإنه لا ينبـغى لها هذا الأمـر، تراود فتـاها عن نفسـه، تطلبه في نفسه في شـخصه، في جسمه، تطلب منه ما تطلب المرأة من الرجل، انظروا إلـى أسلوب القـرآن كـيف يرتقي؟ كيف يشفي؟ كيف يرتفع؟ كيف يطهر دائمًا؟ ولم يـأت بالتفـاصيل التي يـأتي بهـا الكتـاب، لكن المتطاولين على القيم المتـمـردين على المثل العليـا، الذين لا يوقـرون قـيمة الحـرف، قـيمه الكلمة ويسـمـون هذا التـجـرد والصـدق في أداء القـصـة، لا بل هـو الفـحش والقـبح والفضيحة، قـالوا: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ هؤلاء النسـاء يقلن: والله إن حـبـه وصل إلـى شـغـاف قلبـهـا، والحب هذا مشكلة، العشق هذا مشكلة، يقول ابن عباس يوم عرفة: «أعوذ بالله من العـشق» تعـوذوا بالله من العـشق حـتى المتنبي له بيت جـمـيل يقول:

وَعَـذَلتُ أَهْلَ العِـشْقِ حَـتَّى ذقْـتـهُ

فَـعَجِبْتُ كَيْفَ يَـمُوتُ مَنْ لا يَعْـشَقُ

المهم أن الخبر انتشر والنساء قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾، ما تستحي المرأة على نفسها تحب هذا الغلام بهذا الشغاف.



- ٥ -

يُوْسُفُ بَين نَارِ التُّهْمَة وجَحِيْمِ السِّجْنِ

المهم في الأمر أن الخبر سرى من القصر إلى الشعب، إلى الناس فسمعت بذلك النساء، وقلن: -سبحان الله- ما تتقي الله، ما تخشى الله، أين الحياء، تراود فتاها، يعني: عبدها في القصر، في بيت العزيز، ولها مال ومنصب، فليس عندها ذرة عقل ولا حياء ولا رادع ولا ورع إذ راودت هذا الخادم، وسمعت امرأة العزيز أن النساء يمكرن بها، وأنهن يتحدثن في المجالس، وصارت هي فاكهة لذيذة في السمر، وسمعت ما يقلنه بها، فأرادت أن توقعهن فيما وقعت فيه وأن توقفهن على الحقيقة، فإما أن يقعن فيما وقعت فيه من الرغبة، أو يعذرنها؛ لأنها ما استطاعت أن تقاوم هذا الشيء **﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾** هذا أسلوب القرآن الراقي في اختيار الألفاظ والكلمات والعبارات، وترك الفواصل والشروح لنا نحن الضعفاء.

أي: مجلسًا كبيرًا وضعت صحون الفاكهة، وعلى كل صحن سكين. قالوا: أترج، وقالوا: تفاح، وقالوا: برتقال، لا يهمنا نوع الطعام، القرآن يأتي بالمقاصد فقط.

ثم أرسلت إليهن وحضرن في بيت الملكة، وجلسن وأعطت كل واحدة سكينًا وقالت لهن: تفضلن، وهي الآن معدة لهن مكرًا وسبحان الله، ما ذنب الشاب يوسف -عليه السلام-؟ شاب أعزب

وغريب، ولا زوجة، وجميل وذكي وتقي ومع ذلك عندما قال أريد الله والدار الآخرة حفظه الله سبحانه وتعالى.

جلست في المجلس، ورحبت بهن، ودار الطيب، وقدمت الفاكهة، وقالت: كلوا. والآن تأتيك الداهية من وراء الستار، حين تقول: اخرج؛ لأنه في عداد الخدم في القصر، فهي تدبر عليه، ولكن الواحد الأحد معه، فإذا كان الله معك فلا تخشَ أحدًا.

وزعت الفاكهة، والنسوة بدأن يتفكهن الواحدة تقطع الأترجة أو التفاحة سمها ما شئت، أرسلت امرأة العزيز ليوسف، وقالت: تريد غرضًا. فتح الستار -عليه السلام- ومر في غرفة أخرى مرور الكرام، فقط رأين الوجه الذي هو أجمل من القمر في الليلة الرابعة عشرة، سبحان مَنْ صَوَّره وأعطاه الجمال، بدأت الأنظار تصل إليه، ورأين الجمال، وهذه الصورة الحسنة التي لم يخلق الله مثلها أبدًا، فصارت المرأة تقطع يدها بدلاً من الأترجه، تجرح يدها ولا تجرح الأترجة، ودُهشن وذهلن وذهبت عقولهن، قال: ﴿**وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**﴾ قال: دُهِشن وذُهِلن وطارت عقولهن ونسين من الدهشة والذهول الألم، فوقعت السكين في يد كل واحدة منهن، يقول بعض المفسرين: قطعن الأنامل وقطعن الكف لم يشغلهن الألم والدم، إنما ذهلن بالجمال والبهاء والصورة الحسنة.

لأن الإنسان إذا كان مشغولاً بشيء، أو إذا دهش بشيء لا يهمه شيء أبداً، ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**﴾، وفي بعض التفاسير قال: حُظْنَ، أي حاظت المرأة مكانها. هكذا قال المفسرون ذكر ذلك ابن الجوزي وغيره.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يعني خدشنها بالسكين، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾، في اللفظ قلن: معاذ الله ما رأينا مثل هذا الرجل في ديارنا، النساء لم يلدن مثل هذا الجمال، مثل هذا الحسن، سبحان الذي صور، سبحان الذي أعطى، سبحان الذي منح هذا البهاء وهذا الحسن وهذا الجمال، والله ما سبق لنا أن رأينا مثل، هذا سبحان الله، معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾، هذا الذي نراه ليس من بني آدم، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، هذا منزل من السماء لم ينزل من الأرض، يوسف -عليه السلام- بشر ونبي، والله أعطاه الحسن امتحانًا وابتلاء، الله يعطيك الحسن لكي يرى هل حفظته؟ ويعطيك المال ليرى هل أنفقته في واجبه، ويبتليك في المنصب ليرى هل عبدته؟ ويبتليك بالعلم ليرى هل وزعته وأنفقته على الناس وعلمت الجاهل؟ وقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾، هذا ليس من بني آدم لجماله، الناس لهم جمال، لكن هذا فاق الجميع، هذا على وجهه مسحة ملك.

قالت هي: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، هذا الذي مال إليه قلبي وبلغ حبه شغاف قلبي، وأخذ لبي وروحي، فلا تلمنني إذا رأيتنني أهواه وأطارده، فهذا الذي وقع في قلبي، قلن: لا نلومك، ارتفع اللوم ما دام أنه بهذه الصورة، نحن فتنا به وقطعن أيدنا وجرحنا أيدينا من أول نظرة، وأنتِ لا تلامين وأنتِ ترينه صباح مساء، يا لها من فتنة!! أيصبح ويمسى بامرأة تلاحقه وتستخدم عليه الضغوط النفسية والمال والإغراء وتشكوه إلى زوجها، وتستخدم السلطة والمنصب والسجن والحبس ومع ذلك يصمد، إلا أن ينصره الله؛ لأنه مخلص لوجه الله عز وجل؛ لأنه منتصر بإذن الواحد الأحد.

يقول بعض المفسرين: سبحان الله، قصة يوسف من أولها لآخرها لا يوجد بها إسفاف ولو بكلمة، كلها طهر ونقاء وهو يتكلم عن مؤامرة،

وشهوة جنسية ورجل وامرأة، وأمور لو حصلت في قصة من قصصص الأدباء لبعثروا بها الحياء ونسفوا بها القيم ولذهبت بها الغيرة ولأراقوا فيها ماء المكرمات، لكن الواحد الأحد هو الذي نزل كتابه.

قالت: ﴿**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾، والله لن يكون من الصاغرين، والله إن الصاغر هو من يعصي الواحد الأحد، ولو كان في بروج مشيدة، أمَّا الذي يتقي الله فهو كريم ولو ينام على الرصيف، ولو ما يجد كسرة خبز، ﴿**وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ الآن اسمع الرد من النساء، ذهبن وأيديهن تقطر دماء لا أكلن فاكهة، ولا سلمت أيديهن، قالوا: نحن عذرناك بهذه الفتنة.

ذهبت إلى العزيز وقالت له: سمع الشعب ما دار بيني وبين الخادم، -اسمع المكر تبدأ بالمكر، وتنتهي بالمكر، وتحبك الكيد ضده وهو المظلوم والمفترى عليه- قال: ما الرأي؟ اسجنه حتى تسكت الشائعة، فأمر بسجنه، فلما سمع يوسف بذلك، قال: ﴿**رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾، يقول: ما دام كذا فإن السجن أحب إليَّ فيه أصلي، وأعبد ربي، فليسجنوني يارب، ليس من قوتك أن تكون عابدًا فالفضل لله، قال: رب أنا ضعيف بنفسي ما زلت أخشى الفتنة، وإلا تصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم، يأتينني بالفتنة والتهديد والإغراء إلا أن تصرف عني كيدهن، يا رب يا مصرف القلوب، اصرف قلوبنا إلى طاعتك، أخاف وأخشى من الفتنة وأخشاها، فأنت يا رب إن لم تمنعني وتحرسني وتحميني أصبو، يعني: أميل، أصبو إلى المرأة يعني أميل، صبا إلى الشيء مال إليه، أخشى مع طول الأيام الإغراء والفتنة أو ضعف إنسانيتي أن تغلبني المرأة فأضعف أمامها، هذا أن تجعل الحول والقوة لله

سبحانه؛ لأن كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله أي: لا يحول بيننا وبين المعاصي إلا الله؛ ولا يقوينا على طاعة الله إلا الله، فيارب حل بيننا وبين المعاصي، قال: وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن، أو أكن من الجاهلين. إن لم تمنعني وتحفظني سوف أقع في الفتنة، ﴿**أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾، فمن صبا إلى النساء وفعل الفاحشة فهو من الجاهلين، قال سبحانه: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**﴾ سبحان من يستجيب دعوة الداعي، كلما يدعو الإنسان ربه لا يقل: دعوت ودعوت، أكثر من الدعاء وأكثر من الذكر، أبشر بالفرج من عنده سبحانه؛ لأنه وعد عباده أن يستجيب لهم، لكن من الواجب عليك أن تدعو، وأن تصدق، وأن تخلص.

﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾، اسمان جليلان عظيمان، السميع فهو يسمع من دعاه، فهو السميع العليم، الآن التجأ إلى الله، فصرف الله كيد النساء عن يوسف وانتهى الموضوع، رجعوا إلى القصر إلى القرار السياسي من العزيز مصر الملك. ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ**﴾ رؤية القميص، والشاهد ومطاردتها والنساء ومكرهن، قال: أرى الأسلم أن يسجن لننهي هذا الأمر.

وسجن فترة طويلة، فلما وضع في السجن نادى ربه قال: يا مؤنسي في وحدتي، يا رفيقي في كربتي. اكشف غربتي، وأخذ يدعو الله وهو مسجون، والظاهر أن السجن كان جماعياً، ودخل رجل معه كان يسقي الملك الخمر، فأعطوه أجرة لِيَسمَّ الملك، فَعُرِف أمره، وأُدْخِل السجن مع يوسف، وأتوا بالخباز الذي يريد أن يَسُمَّ الملك في الخبز، قال الملك: اسجنوهما أيضًا مع يوسف، وكان

يوسف – عليه السلام- يصلي بهم ويدعوهم ويدرسهم في الصباح، وسوف يرسل أعظم رسالة في التوحيد ويعبر الرؤى، إنه أعظم سجين في التاريخ، فهو معبر العصر في تلك الفترة ومعلم السجن ومؤدبه، يقول أحدهم: رأيت رؤيا، فقال أحدهم ليوسف: أنا البارحة رأيت أني أعصر خمرًا للملك، وأني أقدمه له، وقال صاحب الخبز: وأنا رأيت أني أحمل فوق رأسي سلة خبز تأكل الطير منه، بالله نبأنا بالتأويل، فسر لنا الحلم، إنا نراك من المحسنين.

قيل: وجهك وجه الخير وأنت تبشر بمثل هذه الرؤيا. وقيل: لأنه كان يداوي المريض يقرأ على هذا، ويجبر خاطر هذا، ويعلم هذا.

قال: أنت محسن، وقيل: إذا أتته هدايا من الخارج يوزعها على جيرانه في السجن؛ لأن الإنسان الكريم يعرف حتى لو كان في الحبس، والبخيل يعرف حتى لو كان في قصر، فهو محسن. وقيل: نراك موحدًا لله عز وجل، إنك مؤمن به تحسن عبادته فنرجوك أن تفسر لنا الرؤيا، وما دام أننا نراك محسنًا أرجوك أن تفسر لنا هذه الرؤيا، ما الذي وقع علينا؟

قدم لهم مقدمة قال: الحمد لله، أنَّا مَنَّ الله عليَّ في تعبير الرؤى، لا يأتيكما طعامًا ترزقانه إلا نبأتكم بتأويله، قيل: لا ترون طعامًا في المنام إلا نبأتكم في اليقظة. وقيل: لسوف أخبركم بما يأتيكم غداً، وذلك من علم الله الذي علمني علم النبوه، فسأخبركم أنه سيأتي خبز ويأتي لحم. يعني: الله أطلعني على علم الغيب بما علمني من علم النبوه، فأنا لست بساحر ولا كاهن ولا منجم ولا مشعوذ، أنا أتحدث لكم بما علمني الله سبحانه، فأنا موحد، ذلكم مما علمني ربي، ليس من علم نفسي.

﴿**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾، وهو هنا بدأ رويدًا رويدًا مع المسجونين؛ لأنهم وثنيون حتى يردهم إلى العقيدة لكن برفق، بدأ درجة درجة، ثم بَيَّنَ لهم ماذا علّمه من علم الغيب الذي علمه الله، ثم يعلمهم عن آبائه أنهم أنبياء مهتدون، ثم يُوَصِل إليهم أن الله الواحد الأحد متفرد، ثم يقول: وأنتم على ضلالة وأفضل من هذا كذا وكذا، وأنا أرى الأفضل كذا، ﴿**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾، قيل: إنه يقصد أهل القصر؛ لأنهم كانوا وثنيين لا يؤمنون بالله، فأنا تركتهم بالقصر وجئت إليكم هنا، وهم بالآخرة هم كافرون.

فأراد – عليه السلام – أن يبين لهم هذه القضية الكبرى، وهي توحيد الله، هم الآن يسألون عن رؤى إنسان يعصر خمرًا وإنسان على رأسه خبزًا، فيخرج -عليه السلام- من السياق والموضوع ويدخل في التوحيد والرسالة؛ لذلك فالداعية يدعو إلى الله ولو كان في الحديد والزنزانة.

يا أيها السجناء، قبل أن أفتيكم بالخمر والخبز لا أفتيكم حتى تسمعوا مني، أنا لا أعبر الرؤيا حتى أخبركم بقضية تشيب الرؤوس لها، وخلق الله الخلق من أجلها، إنها التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر، آباؤه والله أحسن الآباء، هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: إبراهيم؛ بدأ به لأنه أفضلهم، لأنه إمام التوحيد -عليه السلام- ومدحه الله في القرآن وهو أمة وحده، يسمونه عابد الرحمن، ومكرم الضيفان، ومحطم الأوثان، هذا إبراهيم له روغتان في القرآن، فراغ عليهم روغًا باليمن، يعني: حطم الأوثان،

ولما جاءه الملائكة الضيوف راغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فهو شجاع كريم، والشجاع مُسَاعَدٌ، والكريم معان من الله. هذا إبراهيم. ثم ذكر ابنه واسحاق؛ ويعقوب أبا يوسف معبر الرؤى، واتبعت ملة آبائي، وذلك ﴿**مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ يقول: والله لا يحق لنا وما فعلناه ولا يمكن لنا أن نشرك بالله، قبل أن أفسر لكم الرؤيا يالأسف إنكم مشركون، وهو هنا يدعو إلى أصل الإيمان، وأصل الرسالة والحياة الذي هو التوحيد، ثم قال: الحمد لله أنا وآبائي ما أشركنا بربنا طرفة عين، هذه أحسن ترجمة تقدم للإنسان، إنه موحد وعَبْدٌ لله، ثم قال: هذا من فضل الله علينا وعلى الناس. ويوسف وقف هنا وقفة عظيمة.

مشركون معه بالزنزانة ويدعوهم إلى التوحيد، الله شرفه بدعوة التوحيد، انظر إلى دعوة الأنبياء مع الناس بالرفق واللين حتى يتوصلوا إلى غرضهم، ويقول: إني اتبعت ملة آبائي، يقولون: يسموّن الجد أبًا، إبراهيم، وإسحاق المسمى هو يعقوب بن إسحاق ابن إبرهيم وكلهم على التوحيد، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدعون إلى ملة واحدة الإسلام.

فالدعوة إلى التوحيد واحدة، بَيْد أن الاختلاف في الشرائع، وفي العبادات، والحدود تختلف من شريعة إلى شريعة، وكلهم مجمعون على لا إله إلا الله وعلى اليوم الآخر.



- ٦ -

الدَّاعيَةُ السَّجِينُ

نعود الآن إلى أعظم سجين - عليه السلام - الذي سوف يعبر الرؤيا لمّا سأله الفتيان الاثنان الساقي والخباز، وسوف يعرض عليهم الرؤيا الصحيحة وتفسير المنام، لكن بعدما يقدم لهم رسالة بين أيديهم، التفسير قد يُؤخره؛ لأن الساقي رأى أنه سقى ربه، يعني: أنه يسقي الملك خمرًا؛ لأنه كان يسقي الملك خمرًا فسجنه الملك، فرأى في السجن أنه يسقي ربه يعني: الملك خمرًا، وقال الخباز: إنه يرى في المنام أن على رأسه خبزًا تأكل الطير منه، فقبل أن يفتي هذا ويفتي هذا، ويتحدث لهذا وهذا، ولذلك نجده قدم رسالة عالمية، أكبر قضية في التاريخ، أعظم مسألة عرفها الناس أجمعين، قال: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ يقول: يا صاحبي السجن رسالة التوحيد هي أعظم رسالة أعرضها على الناس، وأريد أن أقدمها للبشر، ﴿**أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾، قبل: أن أُفتيكم في الرؤيا، هل الآلهة المتفرقة والأصنام المختلفة خير أم الله الواحد القهار؟ هل الأرباب التي تتجهون إليها من نجم وشجر وكوكب وإنسان وآلهة هي أعظم أم الله الواحد القهار؟ من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يهب؟ من الذي يصور؟ من الصانع؟ هو الواحد القهار، يا صاحبي السجن، قبل أن أفتيكم في هذه المسائل إن حصلت، وإن

لم تحصل، أنا سوف أسألكم سؤالاً، أسألكم بعظمة الله وجلاله أأرباب متفرقة؛ لأنهم كانوا وثنيين يعني: كل مَنْ في القصر في مصر يعبد الأوثان والأصنام والآلهة، كانت لهم نحوت يسجدون لها من دون الله، فيوسف -عليه السلام- يدعوهم الآن وهو في الزنزانة من وراء الحديد في القضبان، وهذه رسالة المسلم لا ينساها أبدًا ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ويقول: قبل أن أفتيكم أوقفكم أمام التاريخ، وأمام عقولكم، وأمام نفوسكم، وأمام مشاعركم، أسألكم سؤالاً عظيمًا: أأرباب متفرقون حتى الأرباب التي تعبدونهم مختلفون ومتنازعون فيما بينهم، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فليس هناك إله يعبد ولا مدبر إلا الواحد الأحد، وقال: أأرباب؛ لأن الرب هو الذي حفظ الخليقة ورباهم بأنعمه جل في علاه، فهو يستأهل الألوهية والعبودية، لا إله إلا هو، قال: والأصنام سخافة وخرافة.

قال الترمذي: هذه الأرباب خير أم الله الواحد القهار، وانظر إلى انتزاع الكلمات الآن في القرآن، لم يقل: خير أم الله؟ لأن الواحد القهار اسمان عظيمان جليلان بصفتين عظيمتين جليلتين لله الواحد القهار، أما الواحد فلا ثاني له ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، قال: الواحد لتفرده بالبقاء، وكتب على غيره الفناء، وقيل: ذهب بصفات الكمال والجلال، وقيل: كتب لنفسه سبحانه القدسية، وكتب على غيره العيب. وقيل: لا يشبهه شيء من خلقه، ولا أحدًا من خلقه يشبهه، فليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في

مخلوقاته شيء من ذاته، تبارك الله العلي العظيم، قال: هذه خير أم هذه الأصنام التي تعبدون؟ والجواب معروف، قال أهل العلم: هل هي خير في قوتها؟ الله أقوى وأجل، وفي غناها؟ الله أغنى، وأفضل في بقائها؟ البقاء لله. في قدسيتها؟ القدسية لله، في القهر والجبروت، فالقهر والجبروت لله الواحد الأحد، فهو خير سبحانه.

لذلك قال يوسف: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم**﴾ فالأصنام التي تعبدونها أنتم وآباؤكم كلها كذب لا تنفع نفسها، فأنتم منحرفون، وآباؤكم منحرفون، أنتم وآباؤكم جهلاء، أنتم سفهاء تسجدون لحجارة وتلتجئون إليها، انظر إلى الدعوة الحقة يدعو في الزنزانة، لا يدعو وهو مسرور ومعافى وتجلب له الخيرات، يدعو لله من وراء القضبان وهو مسجون، ويدعو إلى التوحيد، قال بعض المعلقين من المعاصرين: الله أرسلها صرخة مدوية عالمية ربانية توقظ الأموات والنيام، قال: ما تعبدون من دون الله إلا أشياء ما لها مسميات، ربٌ هذا لا يملك ضرّاً ولا نفعًا ولا حياة، هذا ربٌّ دجل وكذب وخرافة لا صدق لها ولا قرار، أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم.

قال: ﴿**سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**﴾، ما أنزل الله بها من حجة، ولم يأذن بها، ولم تأتِ بها رسالة من الله لأحد، أن اعبدوا هذه الأصنام، كيف تعبدون هذه الآلهه؟

ولذلك رجع يوسف -عليه السلام- بعد هذا الدرس الحي في التوحيد بعد هذه الرسالة الربانية في العالم، وصل صوته -عليه السلام- وصلت رسالته الآن. ونحن نقولها الآن في جزيرة العرب بعد سنوات وصلت رسالته -عليه السلام- خرجت من الزنزانه، ومن السجن، خرجت من وراء القضبان، خرجت من وراء الجدران بدعوة لا إله إلا الرحمن إلى بني الإنسان والجان، فوصلتنا هذه الليلة، فإذا يقيم هو الحجة مع محمد - عليهما الصلاة والسلام - على هذه الرسالة، قال: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً**﴾، قال تعبيرًا: فسوف يرضى عنك الملك وترجع لمهنتك، وسوف تعصر العنب، وتسقي الملك، قال: ترجع لما أنت عليه، قال بعض الناس: يخلق الله ما يشاء بعضهم للعلم، وبعضهم للعبادة، وبعضهم للإنفاق في سبيل الله، وبعضهم لحسن الخلق، وبعضهم لإنكار المنكر، وبعضهم يعيش سبعين سنة يضرب على العود، يموت حتى يأكله الدود، ويسكن اللحود، وبعضهم يسكر ويمكر ولا يعرف الواحد القهار.

قال: ﴿**أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً**﴾، وفيها أن الرؤى تُعبَّر للناس إذا لم يكن فيها مضرة، رجل عالم فتعبَّر مثل ما سمع المعبر، وأما الآخر الخباز؛ فلأن التهمة أعظم، وهي اتهامه باغتيال العزيز ملك مصر فصارت العقوبة الإعدام، الصلب، وأما الخمار فتهمته سهلة فعفى عنه فرُد إلى مهنته، ﴿**قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾، صدقوا أو لا تصدقوا هذا الأمر الذي أطلعه الله عليه؛ لأنه نبي؛ فأصبحت عبارات القرآن قواعد من البلاغة والبيان تنشر وتحفظ بين الناس.

وذلك لأن الله اطلعه عليها، وقيل: لم يكذب في رؤيا عبرها -عليه السلام- لأنه من أصدق الناس قاطبة، فالأنبياء لا يكذبون لا بالجد ولا بالهزل.

ثم قال: للساقي الذي سوف ينجو من الإعدام ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا**﴾ يقول: يوسف -عليه السلام- عرف أن الآخر سيعدم إذًا لن يوصيه، ولم يكلمه بالرسالة؛ لأنه سيذهب إلى المشنقة، أتى إلى هذا الساقي الذي سوف يسلم وينجو وقال له: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾، قال: أحد العلماء والله يكفي من عذاب السجن أن يوسف -عليه السلام- يقول: اذكرني عند ربك، ويكفي هنا أن نحس بالمعاناة التي كان يعيش فيها يوسف -عليه السلام- وهو النبي المعصوم، ومع ذلك فهو صابر ومحتسب، يقول: للخمار لا تنس الأخوة التي بيننا، إذا ذهبت عند الملك أن تشفع لي عند الملك، لا تنساني واتقِ الله فيَّ، يقول أهل العلم: إنه قال: اذكرني عند ربك، يعني: عند سيدك العزيز، قال بعض المفسرين: إنه أُوْحِي إلى يوسف أن تقول: اذكرني عند ربك، ولا تُخبر أني ربك، تذكرني فقط، وإلا لتلبثن في السجن بضع سنين جزاء هذه الكلمة، مَن الذي يُذْكَرُ في الشدائد؟ الله، مَنِ الذي يجلي الكربات؟ الله، مَنِ الذي يحل الأزمات؟ الله، عبد إنسان فقير هزيل مفلس، تقول له: اذكرني عند ربك، لا يفتح الأقفال إلا الواحد ذو الجلال، ولا يصلح الأحوال إلا الواحد ذو الجلال، ولا يحمل الأثقال إلا الواحد ذو الجلال، ولا يسهل شديدات الأعمال إلا الواحد سبحانه، فقال

أهل العلم: غفر الله ليوسف، هذا ابتلاء من طبيعة البشر، وله أن يقول ذلك، ولكن مقام النبوه العظيم. أرسلها لله في السحر، وأرسلها بسهام دعاء السجود، قال: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾، فأوحى الله إلى يوسف -عليه السلام- تقول للمسجون: اذكرني عند ملك مصر. وتنساني، أن ملك الأرض والسماء، لماذا لم تذكرني وذكرته؟ وما دام أنك قلت هذا إذًا لا يَفْــرّجُ عنك هذا العــام، إذًا بضع سنوات. قال بعضهم: تسع سنوات أو سبع سنوات، قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: اتقِ الله لا ينحرف قلبك عن الواحد الأحد فتلبث في العذاب المهين بضع سنوات من كلمة واحدة، فأدَّبه ربه فجعله يبقى في السجن بضع سنوات، وإلا فإن الله يقول: «**أنا جليس من ذكرني، من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**».

قال: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾، فلما قال له يوسف بالأخوة التي بيننا وأصبحنا بالسجن أصحاب.

يقول النبي يوسف -عليه السلام-: كنا في المشقة مَعًا، عشنا أيامًا سعيدة، ونمنا وراء الحديد، تآخينا وتعارفنا وصارت لنا ذكريات، فإذا إذا وصلت إلى هناك فقل للعزيز شيئًا عني، أو كلمة عن ظلمي، تقول له: عندنا شاب اتهم بتهمه غير صادقة وهو معبر الرؤى وفيه خير، نطلب منك أن تطلقه من الحبس. فأراد الله أن يخبره ويلقنه أنه لا يطلق المحبوس إلا هو، ولا يفك الأسير إلا هو، ولا يقع في الأرض شيء إلا بإذن الله، فأنساه الشيطان ذكر ربه،

اشتغل الخمار بعصر العنب والتوت والتمر ونسي الوصية، ونسي الصحبة، ونسي من في السجن (يوسف)؛ لأن الواحد الأحد أراد هكذا، لا يذكر الملك أولاً بل يذكر الله سبحانه.

قال: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾، أي: أنسى الشيطان الخمار ذكر يوسف، ﴿**فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ صابرًا محتسبًا، وصبر يوسف -عليه السلام- وكان يقوم قانتًا عابدًا متبتلاً إلى الله خاشعًا، يرسل الدموع وَيتوسل إليه سبحانه. قال الذين معه: ما رأينا أعبد منه، وما رأينا أبرك منه علينا؛ لأنه نبي -عليه السلام- فالله -عز وجل- يقلب الأمور في قضايا لصالح يوسف، فهو مسبب الأسباب جل في علاه، إذا أراد شيئًا سهل له الأسباب.

نام العزيز في ليلة فرأى سبع بقرات خرجت من البحر، هكذا قال بعض المفسرين، وخرجت وراء البقرات السبع، سبع بقرات هزال ضعاف عجاف تطاردهن، فتمسك البقرة الضعيفة البقرة السمينة من ذنبها فتلتهمها فتدخلها في بطنها، فالضعاف أكلت السمان، حتى أكملتها في المنام، ثم نظر وإذا سبع سنبلات خضر بجانبه، وسبع سنبلات يابسات بجانبها، فرأى الملك رؤيا عجيبة -سبحان الله- من مشهد، تخرج بقرات من البحر سمينة، ثم تأتي من ورائها بقرات هزيلة ثم تأكل الهزيلة السمينة إلى أن تكمل أكل السبع، ورأى سبع سنبلات خضر وبجانبها سبع سنبلات يابسة، أتى الصباح فجمع وزراءه ومستشاريه وأهل الرأي، قال: يا أيها الملأ، يعني الأشراف ﴿**أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ**﴾، يقول: فسروا

لي هذا الأمر، أنا البارحة رأيت كذا وكذا، إن كان عندكم رؤيا، إن كان عندكم تفسير، إن كان عندكم تعبير، أسألكم أن توضحوا هذا الأمر، وهم ليس عندهم رؤيا، وليس عندهم فقه في الرؤيا، فالله -سبحانه وتعالى- جعل هذه الرؤيا وسيلة ليحتاجوا إلى يوسف، وتكون تلك الرؤيا سببًا في خروجه من السجن وملكه لمصر.

يقولون: أفتوا ثم نفوا عن أنفسهم، ثم اعتذروا ﴿**وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ**﴾ لم يسبق لنا تعبير الرؤى، أجل الآن حول الله القضية إلى يوسف -عليه السلام- فسوف يُؤْتَى ويسأل عنها، ﴿**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾ بعد ما سمع الرؤيا، تذكر أنه كان له صاحب أكل معه وشرب معه، وتحدثا معًا، ودعاه إلى الإيمان، وأحسن إليه علمًا ودعوة وصدقة، كان إذا أتاه شيء في السجن تصدق عليه، وأطعمه وكساه وأهداه إياه، وعبَّر لهم الرؤيا، ومع ذلك نسيه، فلما سمع الرؤيا تذكَّر يوسف قال: ﴿**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾، يعني: بعد سنوات طويلة، ﴿**أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ**﴾، أيها الملك: عندي صديق في السجن حبسته قديمًا اسمه (يوسف) يعبر الرؤى فتأتي مثل فلق الصباح، فأرسلني آخذ الرؤيا منك، وأعرضها عليه، فهذا الذي يمكن أن أقول، فعرضها الملك فأخذها منه هذا الساقي، وذهب إلى يوسف ليسأله عن هذا السؤال وعن هذه الرؤيا؛ لتكون هذه الرؤيا سببًا للإفراج والعفو عن يوسف -عليه السلام- وإخراجه من السجن، ليمهد الله له ملك مصر، ويكون نبيًا له رسالة يرسلها للعالم، هي رسالة التوحيد التي ذكرها في أول القصة.



– ٧ –

«جَاءَهم نَصْرُنَا فَنُجِّي مَنْ نَشَاءُ»

ولذلك الملك أرسل الرسـول من عنده إلى يوسف يسـأله عن تعبير رؤياه، وقد أتاه الله تعبير الرؤيا، فكان يقصها ويفسرها ويعبرها، حتى يقول الحسن البصري. لابن سيرين: أراك تقص القصص كأنك من آل يعقوب، فقال ابن سيرين للحسن: أراك تفسر القرآن كأنك حضرت التنزيل، وهما عالمان جليلان من علماء البصرة مُحَدِّثان مشهوران، الشاهد أن هذه الأسرة أسرة تعبير للرؤيا يوسف بن يعقوب هو وأبوه يعبرون ويقصون، ذهب الرسول الذي قال له يوسف عليه السلام: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾، لا تنس صحبة السجن الطويلة، إذا وصلت إلى الملك اذكرنا وتشفع لنا، علنا أن نخرج من هنا.

بعد أن قص الملك الرؤيا على الساقي كما مر بنا، أمره أن يذهب إلى السجن، ويسـأله عنها، وصل الرسـول إلى يوسف في السجن، لم يناده بالنبوة، قال بعض المفسرين: لأنه أحد احتمالين إما أنه لم ينبأ يوسف –عليه السلام– آنذاك في السجن، إنما كان صديقًا صالحًا عبدًا لله، ولم يكن نبيًا هذا احتمال، والأمر الثاني: أنه نبي ولكن الرسـول والملك لم يعرفا أنه رسـول ونبي من عند الواحد الأحد. الشاهد وصل إليه وقال ليوسف: أيها الصِّدِّيق قال

أهل العلم: مدحه بالصديقية وهي منزلة بعد النبوة مباشرة، فالله سبحانه ذكر أربع منازل لأوليائه، ووراث جناته، واتباع رسله عليهم الصلاة والسلام، قال: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾، حشرنا الله وإياكم معهم، لهم أربعة أصناف أجلهم وأعظمهم أنبياء الله ورسله -عليهم السلام- ثم أهل الصديقية كأبي بكر الصديق، ثم الشهداء، ثم الصالحون.

قال ليوسف: أيها الصديق، يقول أهل العلم: كيف عرف أنه صديق؛ لأنه عاشره سبع سنوات في الحبس، فرأى صدقه وأمانته وأخلاقه، فناداه بهذا قال: ﴿ **أَفْتِنَا**﴾، الآن عرض عليه الرؤيا مرة ثانية، برؤيا الملك الذي قال له الوزراء: إنها أضغاث أحلام؛ وهذه لا تدل على شيء؛ لأن الجاهل يأتيك بفتاوى مظلمة؛ لكن يأتيك الخبر اليقين الآن عند من يفسر الرؤى، قال: ﴿**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ**﴾، رآها الملك، السمان تأكل العجاف، قال ابن الجوزي في زاد المسير: قال بعض المفسرين: إن الملك رآها تخرج من البحر سمانًا تطاردها النحاف الضعاف، فتأكلها والله أعلم بهذه الرؤيا، يأكلهن سبع عجاف، يعني: ضعيفة تأكل سمينة، وسبع سنبلات خضر بجانبها، وأخرى يابسات، يعني سبع يابسات. ﴿**لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، الناس ينتظرون فتوى منك، الملك متوقف الآن، مذهول استدعى الناس والوزراء، ولكنه لم يُفته أحدٌ منهم، كلهم ردوا بجهل، وقالوا: أضغاث أحلام، قال -عليه السلام-: تزرعون سبع سنوات، هنا إشكال عند بعض المفسرين ذكره ابن

الجوزي وغيره يقول: هل هذا من ادعاء علم الغيب؟ أن يوسف -عليه السلام- قال إنكم سوف تزرعون سبع سنين ويأتي سبع سنين شديدة أو قحط بعدها فتأكلها، هل هذا من ادعاء علم الغيب، أو يجوز هذا.

قالوا: على أحد احتمالين الأول: أنه جعله تحت مشيئة الواحد الأحد، فهو لا يقضي للناس إلا بما شاء الله، والثاني: أنه من باب الأمر، أنه قال: ازرعوا سبع سنين، وستأتي من بعدها سبع سنين، وهذا الأمر وارد، فلك أن تأمر في المستقبل، ولكن ليس لك أن تدعي الغيب.

قال: هنا تزرعون سبع سنين دأبًا، يعني: ازرعوها مستمرة لا تنقطعوا سنة عن سنة ولا فصلاً عن فصل، فإذا أكملتم زراعة سبع سنوات ﴿**فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ**﴾، الآن هو مرشح لأن يكون وزير الخِزَانة في مصر؛ لأن الله أعطاه من علم التخزين، فقال لهم: من الأفضل أن الحنطة تترك في سنابلها، وهو سيتولى الوزارة على الخزينة في مصر لعلم سابق من الله -عز وجل- وتهيئة، وكل هذه الأمور مهيأة من عند الواحد الأحد، حتى يصل إلى الملك والنبوة، ويحكم مصر، فالحب إذا بقي في سنبله لا يصيبه السوس ولا ينتهي بل يبقى بإذن الله، قال: ﴿**فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾، أما للاستهلاك فلكم أن تطحنوه وتأكلوه، وأما الذي تخزنوه فاتركوه في السنبل؛ لأنه لن يتغير على مر الأزمان، وهذه قضية معروفة عند أهل الزراعة، وأهل العلم، لكن

الله عَلَّم يوسف، فانظر إلى تعليم الله، علمه الرؤيا وهو في الزنزانة، وعلمه سرّاً من أسرار الزراعة وهو في الزنزانه، حتى يقول العلماء في الزراعة: إن بقاء الحبة في السنبلة أعظم من كل المواد الكيماوية التي يمكن أن تضاف إليها، ولكن الله اطلع العبد، واتقوا الله ويعلمكم الله.

فأمرهم يوسف -عليه السلام- أن يتصرفوا بالحب والسنبل قدر حاجتهم، خذوا من السنبل، واتركوا الباقي في الخزينة في سنبله، ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾، الآن خوفهم بسبع شداد ضراء تعقب السراء التي لابد للعبد أن يتعاودها في حياته، لابد للعبد أن يمر في فقر وغنى في الأرجح، وهَمٍّ وسرور وصحة ومرض، ولكن بعد كل شدة سوف يأتي بعدها الفرج، وسوف نتحدث عن ذلك. ثم يأتي من بعد ذلك، سبع شداد، يعني: سبع سنوات قحط، يأكلن، يعني: السنوات ما فيها، تأكل ما قدمت لهن، مما زرعتم ومما خزنتم ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ**﴾ إلا قليلاً مما ادخرتم وكنزتم، وسوف تنفعكم في أيام القحط، وسوف تأكلون منه، وسوف تنفقون منه، وهذا الذي سوف يحصل بإذن الله.

يقول بعض أهل العلم: سُئِل يوسف -عليه السلام- في الرؤيا عن سبع وسبع فقط، لكنه أضاف سنة من علم الواحد الأحد، هو لم يسأل ماذا بعد السبع والسبع، هو سئل عن سبع بقرات سمان، وسبع عجاف، وخضر ويابسات في السنابل، لكنه زاد سنة من عنده، قالوا: أطلعه الله بعلم على ذلك ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾، أما العام هذا فهو عام الرخاء بعد السبع الشداد سوف

يأتي الله -سبحانه- بعام المطر والغيث، وسوف يغاث فيه الناس ويُمْطَرون ويعصرون التوت والزبيب والسمسم، وفي بعض الألفاظ التي ذكرها صاحب زاد المسير وغيره قال: والصحيح يحلبون، وقال: ينتهون إلى أنهم سوف يعصرون الزبيب والسمسم والذرة في ذلك العام من كثرة الخير فيه. والحسن، قال: يحلبون فيلحق في ذلك الأنعام أنها تنعم وتسمن ويأتي فيها حليب.

رجع الرسول إلى الملك وأخبره بتفسير هذه الرؤيا الصحيحة، فالوزراء والحاشية قالوا: لم نفهم منها شيئًا إنما هي أضغاث أحلام، لكن الساقي هذا أتى بتفسيرها نصّاً وحقيقة ويقينًا من عند الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ**﴾، لأن تعبير الرؤيا رَغَّب الملك فيه؛ ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: «**رحم الله أخي يوسف لو كنت مكانه لأجبت الداعي**» تواضعًا منه عليه الصلاة والسلام، لكنه من ثباته ويقينه قال: لا، جاء الرسول يسعى إلى فتح الباب، قال: الملك يناديك اخرج، قال يوسف: لا لن أخرج، يقول العلماء: انظر إليه في جانب تبرئته في عرضه، ثبت وفي جانب الخروج، قال: اذكرني عند ربك، لا تنس تآخينا في السجن، وبيننا ذكريات طيبة، فلما جاء هنا قال: لا لن أخرج، قال ائتوني به: يعني: اسحبوه وأحضروه، فلما جاء الرسول، ﴿**قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾، يقول: والله لن أخرج السجن، قال: ارجع إلى الملك، ﴿**فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ**﴾؟ لماذا أنا سُجِنْتُ، إنْ كنت متهمًا ولم تثبت التهمة عليَّ، فأنا أصغر

من أن أعترض على الحق، وإن كنت مظلومًا فأخبروني أنني مظلوم، معاناتي وحبسي واضطهادي وظلمي وقطيعتي من أهلي وأبي، ومن جيراني يضيع هكذا هباءً، لن أخرج على رغبة الملك فقضيتي قضية عادلة، إن كنت حبست بالظلم والعدوان فأخبروني، وإن كنت ظالمًا فأنا أستأهل الحبس، هذا معنى الكلام، وقد فسره بعض الأدباء وذكروا ذلك، لكنه التزم الكلام المشهور، قال: ﴿**ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ**﴾، أولاً: اجمع النساء الكائدات، واسألهن لماذا وضعنني في هذا المأزق، ﴿**فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾، يقولون: لم يذكر امرأه العزيز احترامًا للمشاعر، وإلا هي التي ورطته في الحبس، واللاتي قطَّعن أيديهن حضرن في الحفل، لكن انظر هذا الذكاء، ﴿**قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ**﴾؟ لماذا تآمروا عليَّ، هل أنا فعلت ذلك؟ إما أن تأتي براءتي على رأس الملك والدولة، وإلا سأبقى، جاء الملك فجمع امرأته والنساء و﴿**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ**﴾ أخبروني بالقصة الآن يوسف رفض أن يخرج فأخبروني هل الرجل ظالم أبقيناه في السجن، أو أنه مظلوم أخبروني، هل روادتن يوسف عن نفسه؟ يقول الملك: لماذا راودتن يوسف؟ قيل: وإنه بلغ عنده من القرائن والاحتمالات ما بلغ لديه أنهن راودن يوسف عن نفسه، قال: أخبروني أنا أرى في نفسي أنكن راودتن يوسف، ولذلك أخبرتكن، قال الملك: إذًا راودتن يوسف عن نفسه خاطبهن جميعًا، ولم يوجه الخطاب لامرأته العزيز رفعًا للتهمة ودرأً لها، والقرآن دائمًا يأتي باللين والرفق وأحسن الأساليب للنفس البشرية.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾، يعني: معاذ الله، قالوا: نبرأ مما نسب إليه، فوالله إنه بريء، والآن أتت البراءة وانطلقت من قصر الملك الذي انطلقت التهمة منه ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وإنما لم يذكر الفاحشة، بل ذكر مقدمات الفاحشة ليقطع الكلام من أصله، فقالوا: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ لا غزل ولا تهمة ولا إرخاء بالكلام ولا خيانة في اللفظ، إنما كان صديقًا بريئًا تقيّاً طاهرًا ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، وهنا قال: من سوء (بالتنكير) لتشمل كل السوء، ولتفصل أي فرد من أفراد العموم، أي تنفيه كما دل عليه ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ معاذ الله، إنه لم يكن سيئًا، ولم يفكر في الفاحشة ولم تبدر منه، وإن الخطأ من النساء، الآن امرأة العزيز سوف يكون لها موقف، وتريد أن تبرئ ذمتها أمام الله ثم التاريخ، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، أي: ظهر الحق الآن، ظهر البيان، الآن أتت شهادتي أمام الله، وأمام العالم وفي قصر الملك، وفي التاريخ الآن حصص الحق. أنا راودته عن نفسه، الآن سوف ننتهي من هذه التهمة التي شيبت الرؤوس، وأزعجت كل الناس، التي أساءت لكل مؤمن، لكن أتى هذا البيان لهذا النبي الرسول -عليه الصلاة والسلام-. قالت: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾، قالوا: بعد هذه الكلمة لم يصبها إلا خير فإن الله -سبحانه- أجرى على لسانها خيرًا بعد ما قالت هذه الكلمة. يقول بعض المعاصرين: إن الملك لم تكن عنده غيرة شديدة؛ لذلك سوف يبقيها اتركوا الموضوع ولا تكرروه مرة ثانية، والقرآن لم يأت بالتفاصيل، ولم يقل: طلقها، أو غضب عليها، قالت امرأة العزيز: أنا راودته عن

نفسه، وإنه لمن الصادقين في كلامه، إنه مظلوم ومتهم وإنه ما هَمَّ بالفاحشة، ويقول بعض المفسرين: يقول يوسف: ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب في غيابه وفي قصره. كذا قال ابن تيمية، وهذا خطأ يخالف السياق بالدليل والكلام، والصحيح أنه من كلامها هي؛ لأن ابن تيمية كتب في مجلد التفسير، وطال النفس في ذلك، لأنه لا يترك شاردة ولا واردة ولا فتحًا من الفتوحات التي أعطاه الله، إذًا قائل الكلام: هي، وهي لغة العرب تقول: ليعلم أنه لم أخنه بالغيب، ليعلم يوسف في السجن أنني حاضرة هنا، وهو غائب في السجن أنني لم أخنه بالغيب، هذا من قول امرأة العزيز، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

يقول ابن تيمية: تقول هي: وما أبرئ نفسي مما وقع مني، وهو حب الفاحشة ومراودته، وإغلاق الباب. ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾،

قال: ﴿**إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾، قالت: إن الله رحم ولطف ولم تقع منا الفاحشة، وقيل في العموم ﴿**إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ من قهر نفسه وردها عن هواها وأعرض عن مبتغاها فرحمه الله برحمته سبحانه وتعالى.



– ٨ –

«نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء»

ومن العجيب في الأمر أن ملك مصر يرسل رسولاً من عنده إلى السجن، فيقول: اذهبوا إلى هذا الرجل وأخرجوه لأستخلصه لنفسي، والاستخلاص: هو اختيارٌ من ثبت بالتجربة صدقه، فإن في القرآن الاختيار والاجتباء والاصطفاء والاستخلاص، فالاستخلاص هو اصطفاء من ثبت بالتجربه صدقه، وهذا ما وقع ليوسف؛ فإن الملك جرّبه وعرف أنه صادق، وأنه معبر الرؤى، وأنه مبارك وأن عنده علمًا، لكن انظر إلى أسلوب القرآن، يقول: ﴿**أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾، فهو لن يخرج من الحبس، ويعتق من السجن، ويكسب الحرية فقط لكن من السجن إلى القصر، من القيد إلى المنبر، من الاضطهاد إلى أن يَمْلك بإذن الواحد الأحد، ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾، قال: ﴿**أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾، يعني: مكرمًا معززًا لا مهانًا، أي: ليس رجلاً عاديّاً من أفراد الرعية، قال: أستخلصه ويكفي، أو أصطفيه، قال: لنفسي، يعني يكون لاستشارته الخاصة، ولأموره الخاصة، والحقيقة أن الله كان صاحب فضل -جل في علاه- على يوسف، فإنه ما كفاه أن يعطيه استشارة الملك، بل جعله الملك، وجعله النبي، وجعله الذي يدير خزائن مصر، فضلاً من الله ونعمة.

قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: الملك، كلمه يدل على أنه احتفى به عند الدخول، وأنه ما حبسه طويلاً ولا انتظر، يعني: كلَّمه مشافهة بلا ترجمان، قال الملك: ليوسف ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: أنت مكين أمين عندنا، فيوسف لا يريد منصبًا في التشريفات، يسلم يودع ويذهب أو شيئًا عائمًا، قال: لا، أنا أريد شيئًا معينًا.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ يعني: هنا طلب المنصب بوضوح، أريد وزارة المالية لأصرِّف شؤون الدولة في المال، ويوسف لما رأى في نفسه قوة وقدرة؛ لأنه أفتاهم بتصريف أمور الخزينة في الطعام، وعلم أن الله علَّمه الكتابة والحساب، ورأى أنه أوجه إنسان، وأحق رجل في هذا المنصب، سألهم المنصب، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾، خزائن الأرض في تلك الحقبة من مُلْكِ مصر، فيريد أن يكون هو في عالم الخزينة، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، قالوا: أخذ صفتين هي التي تليقان بالحساب، والقائم على المال حفيظ، قالوا: حفيظ للمال، وعليم بالكتابة، فلابد لمن يترأس المال أن يكون عنده حفظ وفهم لما يقوم عليه أمر المنصب، أو ما يقوم من ذلك من وسائل العصر، يعني: حفظ للحساب وعلم بالكتابة؛ لئلا يكون أميّاً فتختلط عليه الأوراق، أو تزور عليه المشاهد والعقود والصكوك؛ لذلك أتي بهاتين الصفتين.

قال: إني حفيظ، يعني: للحساب، عليم بالكتابة، فاجعلني أنا على خزائن الأرض، فطلب يوسف -عليه السلام- هذا المنصب، قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فالله - سبحانه - له الفضل، ليس للملك ولا ليوسف، يعني: هذه الأمور لا تدور بأمور المنصب أو الخزينة، لا تدار بغياب الواحد الأحد بل كل شيء وقع في الأرض قد وقع في السماء.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾، يعني: مكنا له في الأرض، قال: في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، يعني: يختار متنقلاً كأنه زعيم بيده الحل والعقد والأمر والنهي، فيصبح للوزارة وللملك وللخزينة ولقيادة الجيش والتصريف كما شاء، وهذا هو التأييد من الواحد الأحد سبحانه، أن يمكنك بعلم وحفظ وفهم، ثم يعطيك مكانة فتأمر فيها وتطيع ربك سبحانه وتعالى،

قال: ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هنا لماذا كان هذا الختام وهذه القفلة العجيبة، يقول: إن هذا الفعل، وهذا التأييد والتمكين والاجتباء والاصطفاء؛ لأن يوسف كان محسنًا مع الله، ومحسنًا مع نفسه، أما إحسانه مع ربه -سبحانه- أنه حفظ حدود الله. فإنه لم يقارب الفاحشة، وصان دينه، وصان عرضه، وكان صادقًا، وقام بذكره -سبحانه- حفظ حدوده، فالله جازاه كما يجازي المحسن، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ وإنما قال: المحسن؛ لأن الأنبياء في أعلى درجات الإيمان التي هي الإسلام الإيمان والإحسان، والإحسان هو أفضل شيء في كل عمل، من القول أسده، ومن الفعل أتمه، ومن الإيمان أيقنه وأقواه، إلى غير ذلك.

وجاء الحسن في القرآن، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. يعني أسده وأرشده وقال سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ فالحسن جاء في المعاني، وجاء في الألفاظ، وجاء في الأقوال، وجاء في الأعمال، قال: **﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**، الذين يحسنون، وهذا أجر المحسنين، كل الذي اعتلاه في الدنيا له، وليست هي المكافأة الوحيدة، بل له رصيد عندنا في اليوم الآخر فيه من الرفعة عند الواحد الأحد ما يخفى عليكم، أما هذه الدنيا فإنه يأخذ منها البر والفاجر، وقد صح في الحديث: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا مَنْ يحب**» فمن أعطاه الدين فقد أحبه، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، ولا نضيع أجر المحسنين، ثم قال سبحانه وتعالى: تأكيداً على أن هذه سوف تزول لا المنصب ولا الوزارة، ولا الخزانة، ولا السلطة، ولا اجتماع الناس، ولا المال، **﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾**، وما أحسن هذه الرسالة لكل ما عنده عقل أو قلب أو سمع وقد ألقى السمع وهو شهيد.

قال بعض الباحثين من المعاصرين: ليس في القصص العالمي سواء الشرقي أو الغربي أعجب من قصة يوسف -عليه السلام- أبداً. ثم انظر إلى الترتيب، يعني: كل شيء يرتب في وقته لا يأتي إخوانه قبل ما يتولى المنصب، لا يتولى المنصب قبل خروجه من السجن.

قال: **﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾**، الآن جلس للناس، أصبح يستقبل، وأصبح يصدر الأوامر، وأصبح ملكًا، وأصبح له خدم وحشم وجنود وبنود وأعلام وأقلام بين يديه فجأة، من أين جاؤوا وهو في مصر على كل حال هم في أرض كنعان في فلسطين، أتى بهم القحط،

الله يسوق السبب للسبب -سبحانه وتعالى-، فهم في قحط في فلسطين، قال مصر هي أرض الكنانة والخزانة وأرض الأرزاق، فاذهبوا يا أبنائي، إن بها ملكاً عادلاً، ولم يكن يدري أن الملك هو ابنه، سبحان المدبر جل في علاه، اذهبوا بإبلكم، فذهبوا يسوقونها من القحط والجدب والمجاعة، ومشوا يسوقون، ولم يذكروا ما فعلوا، انظروا إلى المشهد الآن، الأول مشهد دخولهم عليه وقوع النظر إلى النظر، قال: ﴿**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ**﴾، دخلوا الديوان، والإذن لهم لحكمة من الله، فلما رآهم قال: ﴿ **فَعَرَفَهُمْ**﴾ يقول سبحانه وتعالى: عرفهم هو بعد عشرين سنة، بعض المفسرين يقولون: بعد أربعين سنة، لكن على كل حال الذي رأيته يقول: عد سبعًا وسبعًا وخروجه ما يقارب العشرين، لكنهم لم يتخليوا أن إنسانًا ملقىً في الجب في الصحراء في فلسطين، وبعد سنوات يملك مصر فهذا الأمر لا يخطر ببال، ولا يدور في خلد، ومهما حدثوا بها لو أقسم العالم لهم لن يصدقوا، ملك متوج وعنده خدم، وفي قصر، وفي سلطان.

فهو عرف أنهم إخوانه وهم أنكروه، جعل الأمور من الحكمة كلها تجري على هدوء لا يتغير في حركاته وفي سكناته، ﴿**كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ**﴾، يعني: الكيد معه ضدهم، الخطة مدبرة من عند الواحد الأحد، إذا كان الله معك فلا تخف.

فلما استقبلهم وأحسن ضيافتهم، قالوا: أتينا جائعين، ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً﴾، وسمعنا أنك عندك بُرٌّ، وعندك أرزاق، قال: من أين أتيتم؟ قالوا: من فلسطين، وأبونا شيخ كبير اسمه يعقوب، ولم يدركوا أن هذا ابن صلبه، وفعلوا به الأفاعيل، فأنزلهم أحسن منزل، ورحب بهم، واحتفى بهم، وأكرمهم -عليه السلام- وهو نبي فجهزهم وحملهم، لكن القرار عنده ألا يذهب أحد إلا بحمل بعير، أهل مصر أو غير أهل مصر؛ وذلك للاقتصاد.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، سألهم وجلس معهم واستمع إليهم، قالوا: إن أبانا شيخ كبير، وقد ضاع منه غلام وهو يبكي عليه؛ وذلك ليستعطفونه ويستعطفعون قلبه، قال كم أنتم؟ قالوا: اثنا عشر، قال أنتم عشرة الآن؟ قال: واحد مع أبينا، والآخر؟ قالوا: الآخر ضاع، قال: كيف ضاع من والدكم؟ قالوا: ونحن صغار ذهبنا نلعب وأكله الذئب، ومن ذلك الوقت وهو يبكي عليه، قالوا: من ذلك الوقت لم تفتر له دمعه وهو يبكي دائمًا، قال عجيب أكله الذئب، قال: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، إن قصتكم عجيبة أما رأيتم إكرامي لكم؟ قالوا: ما رأينا أكرم منك ولا أحسن منك، ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، وذلك لأن أخاهم من أبيهم هو شقيق يوسف -عليه السلام- ومن البديهي أن يعقوب لن يستأمنهم عليه؛ ولذلك لما طلبوا منه ذلك فمسكه وحبسه عنده، قيل: اسمه بنيامين، وقيل: شالو، الله أعلم، والقرآن إذا لم يُسمِ لنا لا نتكلف، إنما أمسكه عنده لأمرين الأمر:

الأول: لأنه يحبه مثل يوسف، أو دون يوسف.

والثاني: أنه شقيق ليوسففهو أخٌ لهم من أبيهم فلا يأمنهم عليه مثل ما أمنهم على يوسف عليه السلام، فيوسف الآن يبدأ معهم خطوة خطوة لكن بهدوء حتى لا تتكشف الخطة.

ثم قال: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، ما رأيتموني أوفيت لكم وكرمتكم، وأنزلتكم، واحتفيت بكم، ومن حقي عليكم بدل هذا الإكرام، وبدل هذا الكيل وبدل هذا الإنعام والتفضل أن أشاهد أخاكم، وقد ذكر الأمور السابقة لترغيبهم واستمالتهم. ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾، وهنا بدأ معهم في الترهيب والشدة، وهو حريص، لكن لا يريد أن يظهر حرصه مرة واحدة، ويقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾، يقول: إن لم تستطيعوا أن تأتون بأخيكم فلا تقربوا مصر ولا تدخلوها، ولا كيل لكم عندي، حتى ولو زيارة، قال: هنا نفي للاحتمال وهو الاحتراز في القِران، الذي في القرآن قال: ﴿فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾، قد يقال: بدون كيل، قال: لا تقربون فقطع عليهم جميع الطرق، قال: لا تدخلوا مصر أرجوكم، والله أني محسن إليكم وإني متفضل عليكم، فأرجوكم لا تقربوا مصر ولا تزروها ولا تأتوا لطلب الميرة والكيل إلا بأخيكم.

والآن هم يعلمون أن هناك وراءهم شدة من يعقوب -عليه السلام-، قالوا: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، والله إنها مشقة، لكن نعدك، والمسألة أصعب مما تتصور أيها الملك، المسألة صعبة لا تحيط بها

العقول، لكن علينا أن نبذل الجهد، ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ قال: هنا المراودة بذل الجهد ومعاودة الطلب هكذا ضبطها أهل اللغة، ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾، في مراودة أبانا، والاستمرار في الطلب انتهى الاتفاق بينهم. رجع يوسف إلى الخدام. وإلى أهل الكيل، وإلى أهل الخزينة، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾، البضاعة التي أتوا بها ليشتروا بها الحب، قيل: إنها نقود ومعها جلود، هكذا قال المفسرون: وأمتعة جلبوها من بلادهم ليأخذوا بها حبّاً. قال: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ لا نريد أجرة، وهذا زيادة في الإكرام، يقول: أعطوهم الجمل بما حمل، أعطوهم الأجرة، يعني: القمح، وأعطوهم الثمن الذي دفعوه حتى يكون إكرامنا لهم، وحفاوتنا بهم كلها مجانًا لوجه الله سبحانه وتعالى.

قال: ما نقيدهم إلا أن نحسن إليهم ونكرمهم في النزول، ونكرمهم في الكيل، ونكرمهم في الأثمان، فيقولون: والله ما سمعنا بهذا ، لابد أن نلبي طلبه. هذا معنى الكلام، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾، قالوا: إذا فتحوها عرفوا أننا أحسنا إليهم، وعرفوا أننا رددنا بضاعتهم ولم نحرجهم أمام الناس، انظروا إلى الأدب، ما قال لهم: أثمانكم مردودة عليكم، والقمح لكم.

لذلك تم المعروف ليوسف بثلاثة أسباب: أنه ستره، ويسره، وعجله، قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾،

لعلهم يرجعون مرة ثانية؛ لأن الكريم يؤتى إليه دائماً، أما البخيل فيتوب الناس منه من مرة واحدة، ﴿**فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ**﴾ وأخبروه بما شاهدوا، ويعقوب لا يدري أن ابنه هو الذي يحكم مصر، ويحكم الدنيا، فأخبروه بكرم هذا الملك وكيف أكرمهم، وكيف أوفاهم، ورد إليهم الثمن، وفتحوا المتاع، ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**﴾، يقولون: إننا لن نكتال مرة ثانية، حتى نأتي بأخينا، أما هذه المرة فقد أعطانا الملك، وكال لنا، وأعطانا الثمن، لكن في المرة القادمة لا ترسلنا يا أبانا حتى ترسل معنا أخانا ﴿**نَكْتَلْ**﴾ وإنا له لحافظون، يعني: والجزم إنما هو لجواب الطلب يعني: نكتال مضاعفة إذا أرسلت معنا أخانا، فهذا شرط الملك أن ترسل معنا أخانا.

﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، قالوا: نحلف لك بالله، الآن اسمع يعني: يحفظونه مثلما حفظوا يوسف ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾؛ لأنهم شكوا، فعلموا أن أمرهم مريب عند والدهم، أو هم أهل ريبة، قالوا: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ قالوا: قدم الوصف لهم للتأكيد على الحفظ؛ لأنهم علموا أن أباهم -عليه السلام- سوف يتهمهم ولا يوافق، الآن هو يبكي ولم يجفَّ له دمع على يوسف، وجاءت المصيبة الثانية أرسل معنا أخانا وهو الذي ما زال يعاني ألم الفرقة والغربة، ﴿**قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ**﴾، أنتم أصحاب يوسف، أنتم الذين ضيعتم عليّ يوسف، وأفقدتموني يوسف، حملتموني الهم والغم والحزن، وأبكيتموني أكثر من عشرين سنة، وفي الكلام حذف وتقدير معناه «فلن آمنكم عليه؛ لأني

أمنتكم على يوسف فما وفيتم معي، فإذًا يكفيني ما صار من المصائب» ثم قال: ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا**﴾، فهو ما زال يطمع في يوسف، عنده حَدْس أن يوسفَ حيٌّ، وأنه لم: يقتل، ولم يَضِعْ ولم يأكله الذئب، قال: ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾.

قالوا: إن يعقوب عرض ضعفه على ربه، وسأل ربه بالمضمون أن يحفظ عليه يوسف.

﴿**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ**﴾ عند أبيهم، الآن بدؤوا يفتحون الأكياس والبُرَّ والأرزاق التي أتوا بها من مصر، وأنزلوا الأحمال عند أبيهم، وحينما فتحوها ﴿**وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ**﴾، ردت الأثمان مع الأرزاق، ثم أتوا إلى أبيهم يستعرضون ما شاء الله بُرَّ مصر والذرة والشعير، ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي**﴾ يقولون: يا أبانا أي شيء أكرمنا هذا الإكرام، أكرمنا هذا الرجل أنزلنا قصره، أتحفنا، زاد لنا في الكيل، رد الثمن، والله لا يمكن للإنسان أن يبغي من وراء هذا شيئاً، هذا الآن يَسْتَدِرُّون عطفه، يا أبانا هل سمعت بأكرم من هذا؟ ما هو الطلب الذي نريده من هذا، نحن استحيينا منه ﴿**هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**﴾ حتى الثمن رده إلينا، ثم قالوا يُرَغِّبُونه: نزداد كيل بعير، قال: خذوه توكلوا على الله.

قال: هنا جاءت ﴿**وَنَمِيرُ أَهْلَنَا**﴾ يعني من الميرة من الزاد، يا أبانا: ردنا إلى مصر بِجِمَالنا حتى نأتيكم بالميرة، أنتم أهلنا ونحفظ أخانا ونشرط لك بالله إنا نحفظه حفظًا ولا نضيعه، ﴿**وَنَزْدَادُ كَيْلَ**

بَعِيرٍ﴾؛ أي الذي سيركب عليه أحدنا، يزيد في العدد بدل ما كنا عشرة على عشرة جمال تصبح أحد عشر جملاً، فنزيد كيل بعير ربما شيء لا نتوقعة، لكن الإكرام عليه يسير؛ لأن الكريم يسير عليه الخير، وهو الكريم ابن الكريم -عليه السلام-، هذا معنى الكلام ﴿**ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾، يعني يسير على الملك.

الآن يعقوب -عليه السلام- يقف معهم قليلاً ويرجح المصلحة أمام المشهد، إما أن ترفض أن ترسل أبناءك فتخسر الميرة وأنت في قحط وجدب، وتخسر كرم هذا الملك ويموت أهلك جوعًا، وإما أن ترسل الابن فيضل ويضيع مثلما ضاع الأول، فاختار -عليه السلام- أن يأخذ عليهم موثقًا من الله، يقول أهل العلم: أخذ هذا الموثق؛ لأن في ذهنه أن يوسف لم يضعْ، ولم يأكله الذئب.

﴿**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ**﴾، يقول: والله الذي لا إله إلا هو وعـزة الله لن أرسله هذه المرة إلا أن تعطوني مواثيق من عند الواحد الأحد، إذا كذبتم تأتي الصاعقة والماحقة والساحقة، فالآن سآخذ عليكم موثقًا، لأنني لم آخذه يوم أرسلت يوسف معكم عندما قلتم غدًا يرتع ويلعب، ومن يومها وأنا حزين عليه، حتى تأتوني موثقًا من الله، ما هو الموثق، لم يقل: تأتوني بيوسف لكن استثنى ﴿**إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ**﴾، إلا أن تذهبوا جميعًا أن يحيط بكم سيل، أو يسجنكم الملك جميعًا، فأنتم معذورون، أما أن تأتوا دونه فوالله لن أقبل إلا بميثاق من عند الواحد الأحد، فلما آتوه موثقهم وعهدهم ووعدهم قال: ﴿**اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾

سبحانه، هذه الكلمة تطبع في صفائح القلوب قل: الله على ما نقول وكيل، فهي القاضية، يقول أهل العلم: إن جزاءه - عليه السلام أن الله توكل بحفظ ابنيه وحفظه وحفظ أبنائه، فعادوا والتمَّ الشمل، فالله على ما نقول وكيل.



- ٩ -

الصُّواع الحُجَّةُ والدَّليل والوَسيلة

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ ويوصيهم الشيخ النبي الكريم يعقوب بتوصية الرجل الحسيب العاقل، وكانوا أحد عشر ابنًا، وهنا لأهل العلم مواقف، لماذا يقول: ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾؟ يقول: إذا دخلتم المدينة وكان في العاصمة أربعة أبواب لا تدخلوا من باب واحد، وقيل قصر الملك الذي هو يوسف.

وقال بعضهم: كالعباس ومجاهد: خوفًا من العين والله أعلم، يقول: خاف عليهم من العين لكثرتهم ولجمالهم.

فمن جمالهم ومن قوتهم واجتماعهم خاف عليهم إذا دخلوا أن يصابوا بالعين فيموتوا.

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، والله لا أستطيع دفع العين، ولا دفع الموت، الحافظ والدافع والمعافي والمشافي هو الله عز وجل، إنما نحن نفعل الأسباب.

يقول لأبنائه: لا تدخلوا من باب واحد، ومع ذلك أتوكل على الله -سبحانه-، فإذا أصابتكم عين لا أحد غير الله يدفعها عنكم، قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، اسمع المنطق من القرآن، يوسف هناك

يرسل رسائل من التوحيد والنبوة والشريعة من الحبس والزنزانة، وكذلك يعقوب يرسل رسائل من التوكل وتفويض الأمر لله والاعتماد عليه فنعم الأب والابن، ونعم الوالد والولد، ويا لها من أسرة مباركة، هذا في مصر يوجه الشريعة، النبوة والملك لخدمة لا إله إلا الله، وذاك في أرض فلسطين يوجه طاقاته في خدمة المبدأ الحق، وهذا فعل الإنسان في هذه الحياة، ثم يقول: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾**، أصل الأمر والنهي لله، والقضاء والقدر لله، وكل ما ينفذ في الدنيا لله، قال يعقوب -عليه السلام-: **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾**، لا إله إلا الله ما أصبره من نبي شيخ كبير، يبكي حتى تبيض عيناه من الحزن، ينوح ثم يقول: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾**، وأسفاه على يوسف، ومع ذلك يقول: عليه توكلت، فهو مع الله يفوض أمره لله، يقول: أنا متوكل عليك في ذهاب يوسف، وفي ذهاب أخيه، وفي ذهابكم، **﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾**، من أراد أن يفوض الأمر فليفوضه لله.

ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، كل اثنين من باب واحد، وما كانت الوصية إلا لحاجة في نفس يعقوب، كان في نفسه حاجة، فوصى أبناءه، أراد يأخذ بالسبب - والله أعلم - إما خوف العين، أو غير ذلك، قال - سبحانه - يمدح يعقوب: **﴿إنه لذو علم لما علمناه﴾** فهذا النبي عُلِّمَ وأعطاه الله من العلم الذي عنده.

قــال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، وإخــوانه مفترقون، وقف هذا عند الكيال، وانفرد يوسف - عليه السلام- بأخيه، وقال له. هل تذكر يوسف الذي وضعوه في الجب، وقالوا أكله الذئب؟ هو أنا ملك الدنيـــا الآن، أنا نبي من عند الواحــد الأحد، والذئاب لا تأكل الأنبياء، أنا أخوك لا تبتئس بفعلهم.

قال: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، أي: ضمه إليه، قال أنا أخوك من أمك أنت شقيقي، العشرة هم إخوانه من أم أخرى، ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، الله مدبر الأمور، الذي فعلوه بي وبأبي لن يضيع عند الله، فهذا تدبير من عند الله، فسوف يظهر لك من العواقب أن الله معنا -سبحانه- والعاقبة للمتقين، فلا تخف، ثم أَسَرَّ إليه أنه سيفعل شيئًا ما في نفسه ليبقيه عنده، حتى يَحْضُرَ أبوه ويلتم الشمل، وكل ذلك من تدبير الباري سبحانه، قال: توكلنا على الله، ومهما ظهر من شيء فسوف أتهمك أمام الملأ أنك سارق فسلم نفسك كأنك متهم، وأنا أجعلك في القصر، ثم يأتي الوالد ويجتمع الشمل.

قال: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ﴾، ملأ الأكياس لهم من الحبوب، والله يقول: كدنا ليوسف، نحن علمناه كيف يحتال، وإلا يوسف لا يستطيع إلا بعلم الباري سبحانه وتعالى، يوسف لما جاء أهل الكيل الخدم والحشم قال: هذا الصواع، قيل: هذا المكيال الذي يكال به اللحم، وقيل: هذا إناء الشرب له من ذهب وهو غالٍ عنده، وعليه

سلاسل قال: اجعلوه في كيس أخي بنيامين، وضعوا عليه الحب، وإذا كشفناه نجد السقاية عنده ونأخذه منه، والصاع معه؛ ليكون لنا حجة، حتى أمسكه بالقصر، أما أن نحبسه دون سبب فلن يرضى إخوانه ولا الرأي العام. فلما انتهى وملأ الأكياس وجاؤوا إلى كيس أخيه ووضعوا الصواع فيه، ثم وضعوا الحب فوقه، ثم حملوا الجمال، وذهبت الجمال، جعل السقاية في رحل أخيه: يعني في كيس أخيه الذي سوف يرتحل إلى فلسطين، ثم ترك الجمال تمشي، انظروا إلى الذكاء والحيلة، غادرت القافلة العاصمة محملة بالبر وأحد عشر جميلاً يركبون الجمال، ولما خرجوا من المدينة أرسل يوسف بعدهم صائح يصيح من القصر ﴿**أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾.

صاح صائح من جهة الملك الذي هو يوسف -عليه السلام- ﴿**أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾، الآن سرقتم صواع الملك الذي هو من ذهب، من يتجرأ ويسرق صواع الملك، ما كافأكم بالضيافة حتى تسرقوا الصواع، الآن أقبلوا؛ صاحوا كلهم، لكن أخاه الحادي عشر، قال له: لا تصح ولا تكشفنا دع الأمور كما نريد، فرجعوا فقابلوا رسول يوسف وأتى الناس فحبسوا القافلة وأقبلوا ينظرون ببراءة ﴿**قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ**﴾ ﴿**قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ**﴾ الكأس الكبير، إما للأكل أو الكيل، ولمن جاء به حمل بعير، وهنا زيادة حتى يقبضوا عليه، وأنهم يريدون هذا الصواع، وأنه لا حيلة، وليست هناك مكيدة، الذي يأتينا به له حمل بعير من بُرٍّ، الجمل يحمل الكثير من البُرِّ والوقت وقت مجاعة، قالوا: نعطيه مجانًا،

وقال الصائح: أنا أكفلكم عند الملك، أهم شيء أن تردوا الصواع، ومن رد الصواع له حمل بعير من البر، وأحسن فينا، وأحسن في نفسه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾ على لسانهم، فهم متيقنون وجازمون أن الصواع ليس عندهم، فقالوا: تالله، هذا من الأسلوب العظيم، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾، والله ما جئنا نخرب ولا نريد أن نسرق، وليس في تاريخنا السرقة، وهذا حالهم هم أبناء نبي لكن الله أراد أن يحتال ليوسف -عليه السلام-، ليتم السر الذي من أجله نصر الله يعقوب وجعل -سبحانه- هذه العجائب، وهذه المعجزات؛ ليتم علمه سبحانه وتعالى، وانظر إلى عدم العجلة في القبض عليهم، أو في أخذ أخيهم وهذا من الحيلة، قالوا الذين من جهة الملك: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾؟ أنتم قلتم لا نسرق، وحلفتم أنكم ما كنتم تفسدون، لكن إن حصل أن أحدكم أخذ الصواع وسرقة، وإنكم كذبتم، فلن نجعل الحكم للملك، أنتم احكموا، سبحان الله- جعل الحكم في ألسنتهم؛ لأن السارق يغرم ويعذر لكن ما يحبس، فالآن هم يقولون: يحبس حتى يأتي الحُكم لصالح يوسف عليه السلام، قالوا: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ رأس برأس إن وجدتم أحدًا منا سرق الصواع فخذوه مكانه هكذا، كذلك نجزي الظالمين. فهم متأكدون أنهم لم يأخذوا الصواع، وأنهم على طهر، لكن أراد الله أن ينطقها بألسنتهم؛ لأن الله إذا كان معك أجرى لك الحيل، وفتح لك الأبواب، ونسق لك

الأمور، لكن إذا كان الله ضدك تعمى عليك الدنيا، وتضيق عليك فكن مع الواحد يكن معك، قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، بدأ الحرس والخدم بتفتيش الجمال، ومن نوادر الذكاء أن يوسف -عليه السلام- لم يبدأ ببعير أخيه حتى لا يَشكُّون، إنما بدأ بجمالهم أولاً، بدأ بالأول، فقالوا: بريء، ثم بدؤوا بالثاني بريء، الثالث الرابع الخامس، حتى وصلوا إلى العاشر، قالوا: بقي الأخير، وفتشوه فوجدوا عنده الصواع، قالوا: ما شاء الله تأخذون الحب وتسرقون الملك، ما كافأتم الإكرام، فطارت عقولهم واندهشوا، ثم قال: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، يقول: ما كان في سلطان الملك وشريعة يوسف أن السارق يعزر الآن، جاؤوا بالحبس فتطابق الأمر، الله جعله حيلة حتى يمسك بأخيه، قالوا: نأخذه قال -سبحانه- ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، رفعنا يوسف، وفوق كل ذي علم عليم، يعلم الجميع الواحد الأحد علاّم الغيوب، قالوا أمام العزيز يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ ما شاء الله، الذي سرق هو ملك، النبي المعصوم المظلوم المضطهد الذي شرد من أهله، الذي يبكي عليه أبوه أكثر من عشرين سنة حتى ذهب بصره، هذا هو يسرق، يقولون: أنت مثل أخيك الذي من أمك، أنت الذي فعلت هذا الأمر، وسببت تأخرنا، وغَضَبَ الملك علينا، يقولون ذلك تشفيًا، فما زال الحنين إلى العداء السابق والحسد في قلوبهم، قالوا له: أنت مثل أخيك، ويُروى: والله

أعلم أنه رأى عمَّة من عَمَّاته تصلي إلى صنم، فغصب منها، وأخذ الصنم وأخفاه وهو طفل على التوحيد، فاكتشفته عمته، وقالت: سرق صنمي. فقالوا: أنت مثل اللي سرق صنم عمتنا، ﴿ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ**﴾، السب موجه له لم يدروا أن الواقف أمامهم هو يوسف -عليه السلام- ومن الحكمة أن يوسف -عليه السلام- كتم غيظه ولم يتكلم. ﴿**فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ**﴾: وهذا من الذكاء والدهاء والحكمة، ألا تستفزك المواقف المغضبة فتُخْرِج من نفسك كلامًا ليس فيه مصلحة، فلو قال شيئًا عن ذلك، أو ردَّ عليهم قولهم وخاصمهم وقال: والله ما صدقتم أنتم الذين فعلتم كذا وكذا لوضحت المسألة، وبطلت الحيلة ليتوصل إلى شيء ما، والله هو الذي علمه به، والعاقبة الحميدة التي أرادها، فالصواب أن يسكت ويتأنى قليلاً ولا يبدي لهم آثار هذه الكلمة، وأن يتمهل -عليه السلام- حتى يصل السر إلى منتهاه، أخفاه في نفسه، ﴿**وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**﴾، أي: يعقب عليهم؛ لأنهم اتهموا أخاه، واتهموا يوسف بالسرقة، ﴿**قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ والله يظهر عليكم أنكم الأشرار، وهو خير منكم، كأن الملك عنده فطنة ويعرف الماضي، سبحان الله عنده من الذكاء الشيء الكثير، فوضع كلمة دامغة ساحقة حتى يتشفى من هذا الباطل، كيف تتهمون أنه سرق وهو لم يسرق أصلاً، وتتهمون أخاكم يوسف أنه سرق وعمره ما سرق -عليه السلام- يقول: حالكم والظاهر عليكم أن الذنب فيكم أنتم، ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾، الله أعلم بما تدبرون، الله أعلم بما جئتم به، ويشير إلى أشياء في

تاريخهم حتى يصيرهم هذا التدبير من الله، قال لهم: اذهبوا أخذنا السارق بسرقته والجاني بجنايته، وأنتم الذين حكمتم أننا نأخذه، ذهب وأخذه بيده أمام الناس وعاتبه بقوله: تأخذ صواع الملك ونحن أكرمناكم، فلما اختفى في القصر، قال: أهلاً وسهلاً لقد أصبحت معي، وهم سيذهبون، وسوف يعودون إلينا وتتم المسألة، وسنخبرهم بما حصل منهم، ثم بعد ذلك يكشف الستار عما فعلوه، وتكون العاقبة لنا ولأبينا، والعاقبة للمتقين، يعقوب -عليه السلام- عندما ذهب يوسف، قال واأسفاه على يوسف، ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾.

قال: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾، أي: استيأسوا من أخيهم، خرجوا إلى الصحراء وأخذوا يتناجون فيما بينهم، وذهبوا بعيدًا عن اجتماع الناس، وقالوا: ما الحيلة الآن، بَلَّيْنَا أبانا في أخينا يوسف، وبقي أكثر من عشرين سنة، والآن أتينا بأخينا بنيامين وفعل ما فعل وبقي في مصر، وقد أخذ علينا موثقًا من الله أن نأتي بابنه، والآن ماذا نفعل، وحاروا في أمرهم وأصبحوا والله في حال عجيب، وانظر إلى الإحراج والهم والغم والحزن غفر الله لهم بما فعلوا وخططوا حتى وصلوا إلى هذا الحال، إن رجعوا إلى الملك لن يقبل، ولن يسلم أخاهم، وإن رجعوا إلى أبيهم، قال: أين الموثق، أما كبيرهم، فقال لن أبرح الأرض، والله لن أغادر مصر، والله إني في هَمٍّ لا يعلمه إلا الله، ضيعنا يوسف من قبل، وأتينا الآن نضيع أخانا الثاني، وأبونا شيخ ذهب بصره يبكي على يوسف،

كيف نقابل أبانا وقد أخذ علينا موثقًا من الله، الذي مواثيقه -سبحانه- لو نزلت على الجبال لدكتها، ماذا أفعل، والله لن أخرج من مصر، اتركوني في الأرض، وجلس في مكانه يبكي، فالموقف مرعب، كيف يقابل يعقوب -عليه السلام- أبكيناه في يوسف منذ عشرين سنة، والآن أخانا الحادي عشر تركناه في مصر، أين المواثيق؟ جلس كبيرهم يبكى، وأقدامه لا تحمله، قال: ﴿**ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾، والله هذا قضاء وقدر هو ما سرق أصلاً لكن هذه لبِّست عليه من مكائد الشريعة الإلهية لصالح يوسف -عليه السلام-. جلس الكبير وقال: لا أستطيع أن أذهب، أما أنتم فاذهبوا وقولوا: ابنك سرق، يوصيهم الكبير، ابنك هو الذي سرق وما شهدنا إلا بما علمنا، والله لا توجد حيلة، فهو مظلوم بتهمة أخذ صواع الملك، لم يدركوا ما المسألة أصلاً، ما كنا ندري أن ابنك يفعل بنا كذا، وأنت أخذت الموثق وما شهدنا إلا بما علمنا، يقول هذا الذي ظهر لنا أنه سارق، وأما الغيب فعند الله -عز وجل- لم يدرِ بسرائر الأمور، كان ابنك معنا ولما انتهينا أخذ الصواع ووضعه في كيسه وسرق، ﴿**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾، نحن نحفظ ابنك في علانيته فقط، أما السِّر فلا نستطيع، نحن شهدنا على القضية التي رأيناها، ورأينا الملك أخذ ابنك بالسرقة، ونحن حكمنا عليه أن يأخذه.

وقالوا: إن كنت غير مصدق لنا فاسأل العير التي قدمنا بها، ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾، العير يعني: قافلة، أتوا مسافرين من فلسطين كلهم يكتال من

القحط، ويأخذ الحبوب لأهله، القضية هزت الرأي العام، إن صواع الملك سرق في قصره، هذا ابنك سرق من القصر الملكي في مصر، وصارت قضية تكلموا عنها الناس وانتشر خبرها، يا أبانا نحن لم نحتل على أخينا، نحن ثقات، يوسف أكله الذئب، وبنيامين سرق هذا معنى الكلام يعني: صدقنا مثل ما صدقتنا، قالوا: وإن لم تصدقنا فاسأل العير التي أقبلنا فيها، والقرية التي كنا فيها؛ لأن مصر التي كنا فيها علمت بالأخبار، وإنا لصادقون.



- ١٠ -

القَمِيْصُ، العِبْرَةُ الآيَةُ

قال بعض أهل العلم، كابن عباس: إن ابنك سُرِّق، ولم يقولوا: سَرَقَ؛ لئلا يشهدوا عليه بالسرقة، والسؤال لماذا قالوا: إنه سُرِّقُ -عليه السلام- قالوا إما أنه سرق في دين الملك، يعني هذا الذي سمعناه، قال الملك: إنه سرق ونحن لا ندعي أنه سرق والله أعلم بذلك، لكن الذي رأيناه وشاهدناه من حكومة الملك يوسف أنه سرق، وما عرفوا أنه أخاهم يوسف عليه السلام، والثاني قيل: إنه سرق لأننا رأينا الصواع في رحله كل منا أخرج رحله وما وجدوا الصواع إلا فيه؛ لذلك الذي شهدنا به، وقيل: الظاهر لنا أنه سرق والله أعلم بالأمور؛ لأنهم قالوا: ﴿**وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**﴾، قالوا: هذا الظاهر لنا، لكن السر عند الله والغيب لا يعلمه إلا الله، ونحن لا نزال نثق في أخينا، وليس لدينا إلا الظاهر أن ابنك سرق، وما شهدنا إلا بما علمنا، وما رأيناه في أثناء البحث في الرحل عن الصواع، قالوا: ﴿**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾ الآن لسنا نحفظ أسرار الناس، ولا ندري بما يدور في خلد الناس، والله -سبحانه- هو أعلم بغيب الأمر، وهو أعلم بما تخفيه الأمور، لكن هذا هو الظاهر، وهذا هو الحاصل من الإخوة.

ثم قالوا لأبيهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ إن كنت شاكّاً في كلامنا، فاسأل أهل مصر؛ لأنهم حضروا القصة لأنهم لما قالوا: أيتها العير إنكم لسارقون، رجعت القافلة وأوقفوا العير وجاء العسكر، وبحثوا عن الأمتعة وفتشوا في القافلة فحضر الناس وشاهدوا الحدث، وقال صاحب زاد المسير: بل قرية من مصر يعني على مشارف الخروج من المدينة، فهي القرية التي وقعت بها القصة؛ لأنهم خرجوا كما تعرفون بالقافلة، فصاح الصائح بعدما رتب يوسف الأمر، ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، وهم مسافرون، فأوقفوا العير وأقفوا القافلة، وأتى العسكر وبحثوا فوجدوا الصواع، يقول: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾؛ هنا يقول أهل البلاغة: معناها اسأل أهل القرية؛ لأن القرية لا تتكلم، هي جدران، وقال بعض أهل اللغة: لا قيل: اسأل القرية لأن القرية؛ لا يكون فيها إلا سكان بشر فهي على ظاهرها لا تحتاج إلى تأويل، وإلى تقدير، فلا تقل: اسأل القرية، فإذا قلت القرية: معناها سكان القرية المعمورة بالسكان، وكانوا -رضي الله عنهم- شاكين؛ لأنهم فعلوا بيوسف ما فعلوا في الماضي؛ ولذلك سوف يشك فيهم يعقوب، فبالأمس فعلوا ما فعلوا مع يوسف، والآن يقولون: أخونا سرق، فهم عرضة للتهمة والريبة والشك؛ ولذلك قالوا: اسأل القرية التي كنا فيها؛ لأن الصادق أو البريء لا يحتاج إلى أن يقول: اسأل فلاناً واسأل الجيران، واسأل الإخوان، بل هكذا حصل وأنا متأكد ومتيقن، ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ لأن القرية في

مصر والعير أتت معهم من فلسطين ليأخذوا الميرة، ويكتالوا الحب من مصر، فمعهم رفقاء، شهدوا الواقع ورأوا الصواع في رحل ابنك، والله ما أدخلنا الصواع نحن، وما ظلمناه وما سرقناه، لكن هذا هو الحاصل وإنا لصادقون، وهم صدقوا في هذا، فهو وقع ما وقع، لكن سوف يرد عليهم يعقوب؛ لأنه ملدوغ من قبل، وسوف تصور عنده الأشجان والأحزان على هؤلاء الإخوة الذين اقترفوا في حقه ما لا يرضى الدّيان جل في علاه، الآن قالوا: وإنا لصادقون، نعم هم صادقون فيما حصل، لكن قبل لم يكونوا صادقين رضي الله عنهم.

قال يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ردها إلى النفوس الأمارة بالسوء، قال: لا والله إن نفوسكم سولت لكم أمرًا وإنكم قمتم بمكيدة، وإن وراءكم خبرًا الله أعلم به، يقول: ما ندري ما الأمر إنما فيه مكيدة وفيه سر، فأنا لا أثق كلامكم، أنتم أخفيتم عليّ يوسف، قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، يقولون: هذا من أحسن الكلام عند المصائب، إذا أتتك مصيبة فقل فصبر جميل، بعد أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بالأول والثاني الذي أخفيتموه عسى الله أن يأتيني به وبيوسف؛ لأني لا أيأس من روح الله سبحانه وتعالى؛ إنه هو العليم الحكيم، قال سبحانه: وتولى عنهم، يعني: انصرف بوجهه إلى شأنه.

﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، لماذا الآن السؤال، أليس يوسف انتهى من سنوات طويلة. وانتهى البكاء والحزن عليه؟ الآن أخوه

المصاب الثاني هو الذي وقعت فيه الكارثة، فلماذا قال هنا: يا أسفا على يوسف، قالوا: لأن الجرح ينكأ الجرح، والمصيبة تذكر المصيبة، فقال: أنتم ذكرتموني الآن بمصيبتي في يوسف عليه السلام، قال: يا أسفا على يوسف، انظر الجناس اللفظي الجميل في يا أسفا على يوسف، فهنا استخدم يا أسفا على يوسف وهو للتحسر والتفجع، فقال: يا أسفا على يوسف، قال أهل العلم: فهو لا يلام، لأنه معصوم -عليه السلام-، إنما قصده يا أسفا على يوسف، أحيل الأسف هذا وأطلب علاج الأسف هذا دواه من الله، قال: ﴿**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾، ابيضت، قالوا: ذهب نورها وانطفأت، وقال بعضهم: كَلَّ البصر، وقال بعضهم بل أصابه عمش، والصحيح أنه فقد البصر -عليه السلام- من كثرة البكاء، إلى درجة أن يفقد البصر، وهذا أمر عجيب ما سُمِعَ بمثله، وينبئ عن حزن عظيم كثير في مستدرك الحال، عن ابن عباس يروي عنه ﷺ أنه قال: «**نزل جبريل على يعقوب، قال يا يعقوب: رأيتك عيناك مبيضة وظهرك محدودب، فماذا أصابك؟ قال: أبيضت عيناي من فقدي ليوسف، وأحدودب ظهري من فقدي لبنيامين**» وفي الحديث: «**قال بكى يعقوب ذات ليلة بعد الصبر، وبعد ما فقد يوسف**» اسمع المناجاة إلى الواحد الأحد، اسمع الالتجاء إلى صاحب الفرج الذي يملك -سبحانه وتعالى- السموات والأرض، الآن يرسل يعقوب رسالة في الليل إلى الله ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير وغيرهم من أهل العلم والحاكم، قال: يعقوب يبكي بين

يدي ربه وهو يصلي ويسجد لربه، يا رب ارحم شيبتي، ارحم ضعفي، ارحم ابيضاض عيوني، فأوحى الله إليه يا يعقوب وعزتي وجلالي وارتفاعي على خلقي، لو كان ابناك ميتين لأحييتهما لك. فردهم الله سبحانه وتعالى عليه، قال: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، قالوا: كظيم أي: مكظوم يكظم أنفاسه من شدة الهم والغم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ وأصله من كظم القدْرِ إذا استجمع غليانًا فكظم بفوره وكظم بغليانه، قال: فهو كظيم أي مكظوم، فعيل بمعنى مفعول، أي: كظم ما في صدره من الغيظ ومن الحزن، ومن الأسى واللوعة على يوسف وعلى أخيه، يقول: يا أسفا على يوسف وعلى العين وعلى الصدر، قال الرازي: جمع بين هؤلاء الثلاثة؛ لأنها أهم شيء عند الإنسان القلب والعين واللسان، أما اللسان: فقال: يا أسفا على يوسف، وأما العين فابيضت عيناه، وأما القلب فهو مكظوم من الحزن، قال أبناؤه وهم يشهدون هذا المشهد، وهذا المنظر أمامهم، قالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، قالوا: لا تفتأ هنا حذف اللام النافيه عند العرب، قالوا والله لا تفتأ حتى تستمر تذكره دائمًا، كلما أتتك مصيبة ذكرتنا بيوسف، الآن الواجب أنَّ تطاولَ الزمان أنساك يوسف، يقولون: نحن في قضية نخبرك عن أخينا بنيامين، نحن في معضلة أخونا سرق وهو الآن محبوس وممسوك، فالآن تذكرنا بيوسف، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ الحرض الدلف أو المريض أو من ذهب عقله، أو من فسد جسمه، هذه المعاني، قالوا: الآن

تستمر على البكاء على يوسف حتى تكون حرضًا، قال بعض المفسرين: حتى تجن وتفقد عقلك، ويفسد جسمك وتمرض وتذهب قوتك وحيلك بسبب ذكراك ليوسف، انتهى الزمان، الزمن كفيل أن ينسيه، لكن من أين ينسيه الزمان فلذة كبده وشجا روحه عليهم السلام، ﴿**قَالُوا تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ منَ الْهَالكينَ**﴾ إما أن تمرض، وإما أن تموت، وإما أن تجن، وإما أن تذهب وتفادي الدنيا، هذا كلامهم له، هذا الحوار له بدلاً من التعزية، بدلاً من أن يقولوا: اصبر عسى الله أن يجعل لك فرجًا، عسى الله أن يجمعك بأبنائك نجتمع جميعًا. قالوا: الآن تعيدنا إلى يوسف، وتبكي على يوسف، والله إنك لا تزال تبكي حتى تفقد عقلك، وتفقد صحتك، أو تموت الآن، قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّه**﴾ البث أشد الحزن، فإذا جاءك حزن وأردت أن تبثه لا يمكن أن تخبر به، ولا يستطيع أن تبثه فسوف يتفجر، فأشد الحزن البث، ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّه**﴾، يقول: يا ربي ارحم بثي، يا ربي ارفق بحزني، يا رب انظر إلى حالي، ربي الشكوى عليك، وانظر إلى النتائج سوف تكون لمن اعتمد على الله.

قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّه وَأَعْلَمُ منَ اللَّه مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾، هنا وقفة ما الذي يعلمه يعقوب -عليه السلام- من الله ما لا يعلمه أبناؤه؟ قال أهل العلم: أعلمه جبريل أن ابنك يوسف محفوظ وسوف تجتمع فيه. وقال الثاني: عُلِّم أن الله عز وجل لن يخذل يوسف، ولن يتخلى عنه، ولن يتركه فعلم النبوة علمه بأن الله سوف

يجمعه به. والثالث قالوا: علم أن الله لا يشيع دعاءه، وأنه سوف يستجيب له؛ ولذلك لما أوحى إليه وعزتي وجلالي وارتفاعي على خلقي لو كان ابناك ميتين لأحييتهما، لك فهذا الذي قاله أهل العلم. في الباب وفي المسأله قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ فالعلم له -سبحانه وتعالى- وهو اطلاع أسرار الخوافي التي يعلمها سبحانه، ولا يعلمها الناس، قال: وأعلم من الله ما لا تعلمون، فثقتي في ربي لما أطلعني الله -سبحانه وتعالى- عليه، قالوا هنا: الآن لا تيأس ما دام أنك تسأل الباري ففرجه قريب، ولطفه قريب، وهو سميع مستجيب.

ثم التفت إلى أبنائه، وقال: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾، قالوا: لا تحدثنا عن يوسف وهو ميت من زمان، تالله تفتأ تذكر يوسف، أصبح في الماضي، فهم لم يظنوا أنه في مصر، أو أنه هو الملك الذي قابلهم وأكرمهم، قال هو: يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف، انظر إلى علم النبوة الآن يبدأ، وهم متعجبون منه لماذا يذكر يوسف؟ وهل نجتمع بيوسف، قال: اسألوا عن أخبار يوسف، هم يريدون قطع أخبار يوسف، لماذا قال تحسسوا، ولم يقل: تجسسوا؟ قال أهل العلم: التحسس في الخير، والتجسس في الشر، فتحسس الخبر يعني خبر البشرى والخير، وتجسس يعني خبر التهمة والشر في القرآن، ولا تجسسوا: أي لا تطلبوا أخبار الناس السيئة لتؤذوهم، وهنا فتحسسوا، أي: اطلبوا الأخبار السعيدة السارة من يوسف، وانقلوها لنا، يا بني: ﴿**اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾

أي: اسألوا عن الاثنين عن أخبارهم لعلهم اجتمعا، لعلهما موجودان، قال هنا: ﴿**وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ**﴾ أي: احذروا أن تقنطوا، إنه الفرج، وإن الله سيجمعني بهم، لا تيأسوا من البحث، ولا تيأسوا من العون أو الفتح الذي سيحصل، وأتى بقاعدة مطردة، قال: ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾، يقول صاحب الطحوية: واليأس من روح الله كفر يخرج من الملة، فعلق بعض العلماء قال: لا، كل كَافرٍ يائِس من رحمة الله، لكن ليس كل من يئس من رحمة الله هو كافر، وفيها نظر. فقد يبلغ من الإنسان ضعف اليقين، وضعف العلم، وضعف الإيمان إلى أن يصل إلى درجة اليأس، لكنه يدل على ضعف الإيمان، أما كل كافر فهو يائس من رحمة الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، قال: ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾، رجعوا وأخذوا بوصية أبيهم، وانظر إلى الحوار الآن كيف يأخذ الفواصل؟ ويطوى الزمان والمكان، رجعوا الآن من فلسطين وعادوا إلى مصر، ودخلوا على العزيز الذي هو يوسف عليه السلام، لكنهم لا يدرون أنه يوسف، ولا يدرون أنه هو ملك مصر، ولا يدرون أن الله حفظه ورعاه ومكنه في الأرض، فدخلوا عليه مرة ثانية بعد ما قبض على أخيهم وأتى بأخيه، فقال له: ﴿**إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ**﴾ ولا تخف ولا تحزن وهم يظنون أنه محبوس بالتهمة وفي الصواع.

﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ**﴾، قيل: الحاجة والفقر، وما أتانا من قحط وجدب في الديار ﴿**وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ**﴾، قالوا: دراهم زائفة أو قديمة، وقيل: حبال رثة وأمتعة

جمعوها من الإقط وسمن الغنم، وأتوا بشيء من الماعون الذي في بيوتهم، وهو قديم بالٍ لا قيمة له، وقيل: الوبر والصوف؛ لأنهم لم يكونوا تجارًا، ولم يكونوا أغنياء، فالأنبياء الذين أصلحوا العالم كانوا فقراء، فانظر إلى بيت يعقوب، وانظر إلى بيت فرعون يعيش في القصور والدور التي تجري من تحتها الأنهار، ويعقوب يرسل الإقط واللبن المجمد، ويرسل الحبال البالية والصوف، ليأخذ حبّاً يأكله هو وأهله وأطفاله، وهو نبي رسول من عند الواحد الأحد. هذه حال الدنيا، قالوا: ﴿**وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا**﴾، وزدنا في الكيل ما دام أنك العزيز، وعندك خزائن مصر، وعندك هذه الأموال، وهذه الميزانية تصدق علينا، وعندهم آثار من النبوة ، فقد تربوا في بيت نبوة، قالوا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾، فلن يضيع عند الله شيء، انظر كيف تدور الحوادث وما عرفوا أن أخاهم هو الذي يسير الناس الآن ويحكم مصر وعنده مال، قالوا: إن الله يجزي المتصدقين، يُذَكِّرون يوسف وهو الذي يأتي بهذه المعاني الجليلة -عليه السلام- وهو نبي من عند الواحد الأحد ورسوله.

يقف يوسف الأن أمامهم وما تكلم في الكيل ولا في الصواع، ولا في أخيه، ولا في البضاعة المزجاة، ولا في أن يتصدق، جلس الآن يلتفت وجهًا لوجه، قال: ﴿**هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ يقول: ما تذكرون ما عملتم بنا، أنتم تستحضرون ماذا فعلتم بيوسف هل مر بكم أخ اسمه يوسف، قبل أن نتكلم بالإقط والحبال البالية هل مرَّ بكم يوسف ﴿**إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾، قالوا: غفر الله

ليوسف -عليه السلام- اعتذر لهم قبل أن يعتذروا، قال: إنكم جاهلون، فأنا أعرف أن طيش الشباب يحدث أكثر، وأنا أقدر الأحوال التي عشتم فيها، قال أهل العلم: الله ما أسمح قلبه، ما أكرمه، وما أبره عليه السلام وعلى أبيه وعلى سائر الأنبياء والرسل.

قال: إذًا أنتم جاهلون، لكن يذكرهم فقط يقول: أنا أذكركم حتى تكتشفوا المسألة، من يستطيع أن يدري ما حدث ليوسف إلا يوسف؟ ما حضرهم أحد يوم أنزلوه في الجب، ولا يوجد هناك شاهد، ولم يراهم أحد من الناس، وبذكائهم عرفوا، ﴿**قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ**﴾ أنت يوسف، الذي وضعناه في الجب، وقلنا: أكله الذئب. أنت يوسف هذه المفاجأة، يقول أهل العلم: هذا موقف العفو العام الذي لم يسمع التاريخ بمثله، ولذلك امتثله رسولنا ﷺ جاء بعض قرابته قالوا: له ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾، قال عليه الصلاة والسلام: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾، فهنا أتى بالمشهد وأتى بالموقف التاريخي، ﴿**قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ**﴾ قالوا هذا، أإنك للتوكيد، أنت يوسف ﴿**قَالَ أَنَا يُوسُفُ**﴾ الذي شردتموه من أبيه وأمه، أنا يوسف الذي أبكيتم والديه، أنا يوسف الذي أسهرتم عين أبيه، أنا يوسف الذي بِيْع مَن أجلكم، أنا يوسف الذي جلس في الظلام في البئر وحده بين الذئاب الوحوش، أنا يوسف الذي رُكّب مع القافلة وباعوه في سوق الرقيق في مصر، وخدم في بيت الملك، ثم اجتباني ربي إلى هذا الانتصار، وإلى النبوة، وإلى المُلك أما تعلمون أن الله قدير،

أليس الله يقلب الليل والنهار جل في علاه، أليس الله محيطًا بكل شيء سبحانه، وتوكلت عليه لا إله إلا هو، **﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾** خرجوا الآن في المفاجأة، قال: **﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾**، أنتم حاولتم الإضرار بنا لكن الله له المنة سبحانه وتعالى، **﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**، يتقي فيما أمر الله به، ويصبر انتظار الفرج وقال: إني صبرت وفرج الله عني، قال: **﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾** هذه لكل أحد، لكل من يتقي أمر الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ لأنه أحسن في القول والفعل والتصرف، وأحسن في ترك المعاصي، وأحسن في طاعة الباري سبحانه وتعالى، فجعلها قاعدة المؤمنين، والقرآن يعتني بالظاهر والمطلق وبالعام وبعموم اللفظ، وبخصوص السبب قال: يا عباد الله: يا من يقرأ القرآن: **﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** فكان محسنًا عليه السلام، الآن يا للخجل، يا للحسره ويا للندامة الآن لابد أن يتكلموا فقد انكشفت أوراقهم أمامه، وليس هناك فرارٌ مما فعلوا به، كيف يفرون؟ هل يكذبون ما رأوا؟ هل ينكرون وهم الذين قاموا بالقصة معه؟ وقفوا أمام هذا المشهد حائرين عليهم السلام، وغفر الله للجميع، قالوا: كلمة **﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾**، والله إن الله قدمك علينا، والله إن الله كرمك علينا، أنت المظلوم ونحن الظلمة، وأنت السيد الآن ونحن المسودون، وأنت في بيت النبوة والملك والعزة، ونحن كما ترى، أنت بريء ونحن متهمون، وأنت بار بالوالد ونحن قطعنا حق والدنا وعققناه وكنا

سببًا في إتعاسه ﴿قَالُوا تَاللَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهم يقولون من قلوبهم: ﴿تَاللَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فاختاروا اللفظة قالوا: ﴿تَاللَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: قدمك، أكرمك علينا وجعل لك الزُّلفى علينا بما اختصك -سبحانه وتعالى- من السر والصلاح الذي في قلبك، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، اعترفنا بالخطأ، والله أخطأنا وأسأنا معك يا يوسف سامحنا، قطعناك عققناك أسأنا معك، جهلنا عليك وإن كنا لخاطئين، والخاطئ هو الذي فعل الفعل آثمًا. والمخطئ هو الذي يتأول في الفعل ولا يريده، وإنا كنا لخاطئين الآن يجيب -عليه السلام- عليهم، واسمع إلى العفو الذي ينبغي لي ولك أن نمتثله: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا لوم عليكم اليوم، ولن أنتقم منكم، ولن أقتص منكم، قالوا: لماذا قال لا تثريب عليكم اليوم؟ قالوا: لأنه أجل العفو، وأرفع العفو أن لا تثرب أي لا لوم، يقول: والله حتى اللوم لا ألومكم، ولكم مني أن لا أذكركم في القصة من الآن فصاعدًا مهما جرى بيننا، لن أقول: إنكم أنزلتموني في غيابة الجب، وعرضتموني للذئب والوحوش وللبيع والإهانة والطرد والتشريد، والله لن أذكر هذا ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، قالوا: الكريم: لا يثرب، وإذا عفا الكريم عفا، فلن أعاتبكم غدًا، لا تثريب عليكم اليوم، واسمع إلى الصفح والكرم والجود والحلم، قال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، يقول: غفر الله لكم وسامحكم الله وعفا الله عنكم عما جرى. والعجيب في الأمر حسن اختيار القفلة في الجمل على الإطلاق هذه القفلة ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ جل في علاه.



- ١١ -

لِقَاءُ الأحِبَّةِ، والتِقَاءُ المشَاعِرِ

والآن يبدأ جمع الشمل وجمع الأسرة الكريمة أسرة النبوة والرسالة والملك، سوف يجتمعون جميعًا، يوسف عفا عن إخوانه جميعًا، تباكوا تعانقوا وبقي الوالدان، فخلع يوسف – عليه السلام – قميصه الذي عليه، وهذا أول المبشرات، ولبس قميصًا آخر، وقال: **﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾** من مصر إلى فلسطين، **﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾**، أي: ضعوا القميص على وجه أبي، فإذا وضعتم قميصي بإذن الله يرد الله إليه البصر، ويدب النور في العينين، وهذه حكمة من الله، ومعجزة خالدة، وكرامة لهذا النبي العظيم عليه السلام، قال: **﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾**، خلع قميصه الداخلي قميص النبوة الذي عليه، يقول بعضهم: فيها أرواح الجنة رائحة الجنة والله أعلم، هكذا فسره المفسرون قال: **﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾** لأنه ابيضت عيناه وعمي عليه السلام، حتى كان يبكي في البكاء، ويقول: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾**، يأتي الجيران ويقولون له: تبكي في الليل، يقول: واأسفا على يوسف، كلما زاره ضيف إذا هو أعمى جالس يقول: واأسفا على يوسف، الذي عنده ابن ويكون ذكيّاً وبارًا وطاهرًا وفقيهًا وعالمًا ثم يذهب عنه في شبابه، ولا يدري أين ذهب كيف يعيش؟ كيف ينام؟ وكيف يرتاح؟ هذه هي المصيبة فبكى

وشكى إلى الله، قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فاستجاب الله دعوته، أخذ القميص معه، قال: إذا وصلتم إلى أبي فضعوا القميص إلى وجه قبل أن يأتيني ليراني بهذا البصر، لأني فقدته ومعه عينان، والآن ذهب نور بصره وأصبح أعمى يقاد، فإذا أتيتم بهذا العلاج، وعلاجه في رائحة قميصي، قال: يضع القميص على عينيه، ويشمه بأنفه، فسوف يرد الله البصر إليه بإذن الله، وهذا الذي حصل، قال: في الوصية الثانية - ثم أتوني بأهلي كلهم، والإخوان الآن اصطلحوا وسوف يتكلم يوسف بعد قليل ولن يُعَرِّض للماضي، هذا الكريم دائمًا لا يعرض للتفاصيل، ونَسي لما وضعوه في البئر، وتهمة الذئب، ونَسي كل ما أتاه من مشقة، ويوم بيع في سوق الرقيق، ويوم أتته التهمة، ويوم أتاه التنكيل والحبس، ويوم أتته المعاناه نَسي هذا كله، وبدأ صفحة جديدة وهذا يفعله الكريم، قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقولون: أرسل مئتي راحلة أي: مئتي جمل، وقال: احملوا الأهل جميعًا، وكانوا أكثر من سبعين ليجتمعوا بعد طول فراق، قيل: كان الفراق أربعين سنة الله أعلم، قال: تعالوا بهم جميعًا ليجتمع الشمل، وأحسن شيء في الحياة أن يجتمع شملك بأسرتك، حتى في الجنة إذا أراد الله أن يرضي الواحد منا نسأل الله من فضله قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فلا يشتتهم -سبحانه وتعالى- في الجنة، قال: أتوني بأهلكم أجمعين.

ذهبت القافلة في ريف مصر ولما أشرفت على فلسطين وبقي مسافة قصيرة يقولون: سبع ليال، أو ثمان ليال أرسل الله ريحاً طيبة، هي ريح الصبا وهي صديقة للأنبياء، ذهبت رائحة الصبا برائحة يوسف -عليه السلام- وأنفاسه، ومِسْكُ قميص يوسف ورائحته وقعت على أنف يعقوب قبل أن يصل بثمان ليال، ﴿**قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾، يقول: والله وصل إلى أنفي ريح يوسف، ﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ**﴾، قيل: العير التي أرسلها من أرض مصر فصلت في مصر، أي: ذهبت من أرض العريش، اتجهت إلى فلسطين وعليها الجمالة والخيالة يريدون أخذ باقي الأهل، فوصلت رائحة الثوب «المسك» إلى يعقوب، فقال لأبنائه: الذين بقوا هناك ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ**﴾، أو أخشى أن تسفهوني، وإلا أنا ما أنكرت شيئًا، وما خانني ظني، وما خانني يقيني، أخشى أنكم تفنّدون، أن تسفهوني أو تُجَهِّلوني.

يقول: أنا قلبي هكذا، ولا تسفهوني، أو تقولوا إني هرمت، لكنني لم أجهل، ولم أسفه، وإنني علي عقل من الله وبصيرة وسوف تعلمون، كأنه يعتذر لأنهم سيستهزئون به فكيف بعد أربعين سنة الآن تذكرنا بيوسف؟ انتهينا من قصة يوسف، الآن أتى جيل جديد وضاعت القصة، وضاع الابن الثاني، لكن يأتي الخبر الآن وما يدري والله عمي عليه الخبر حتى يأتيه الخبر عن طريق الشم والقميص حكمة بالغة، قال: والله إن ريح القميص أصبح في أنفي سبع ليال فاقتربوا، قال الحضور الذين بقوا من أبنائه: ﴿**تَاللَّهِ إِنَّكَ**

لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾، يقول والله إنك باقٍ في سفهك وولهك وهيامك بيوسف؛ لأنهم ما زالوا يجهلون يوسف عليه السلام، والله إنك ما زلت على طريقتك الأولى، ظننا أنك تبت وتركت الموضوع ونسيتهم مع الأيام، والآن تعيدنا إلى قصة يوسف، انتهينا من يوسف، لكن لن ينتهي من كان ينتظر فرج الله، وموعود الله لا ييأس؛ ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾، جاء البشير ودخل على يعقوب البيت، فلما قرب وضع القميص على وجه يعقوب، وفي لحظة واحدة أبصر يعقوب بإذن الله، فرد الله عليه بصره فإذا هو يرى كل شيء مثل ما خلقه الله:

فانجلى بصره، أي: ارتد بصره، قال يعقوب وهو يلتفت إلى أبنائه: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾، قال أهل العلم: ألم أقل لكم لا تيأسوا من روح الله ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾، ألم أقل لكم ﴿**فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾؟ ألم أقل لكم ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**﴾؟ ألم أقل لكم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾؟ كل هذه التنبؤات حصلت كفلق الصبح، وأنا أعلم من الله ما لا تعلمون، عندي علم من النبوه، ألم أخبركم أن الفرج قريب؟ أما أخبرتكم أنه سيعود إلينا يوسف ويعود أخوه، أما كنت أحدثكم أنه ستنجلي هذه الظلمة والغمة وسوف يأتي فجر اللقاء وفجر الفرح، وأعلم من الله ما لا تعلمون، قالوا: علم النبوة، وما كشف الله له من علم الغيب، وهو انتصار من يصبر ويتحمل حتى يأتيه الفرج من الله سبحانه وتعالى، أدرك أبناؤه أنهم أخطؤوا، وراجعوا حسابهم

وتذكروا أنهم كانوا سببًا في بكاء هذا الشيخ، وفي همه وغمه وحزنه وعماه وفرقة ابنه وما آتاه من لأواء وضنك.

قالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، الآن عفا يوسف هناك في لحظة، قال: لا تثريب عليكم، لكن الشيوخ يتمهلون، ذكر ابن الجوزي في زاد المسير، قال عطاء الخرساني: من أراد حاجه فليطلبها من الشباب فإنهم يبادرون، والشيوخ يتفكرون ويتدبرون، ولذلك لما طلبوا قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، قال: يوسف في لحظة ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، ولما قالوا: ليعقوب استغفر لنا، قال: سوف أستغفر لكم، ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، والله أسرفنا وأخطأنا وعصينا ربنا وأسأنا إليك، ولذلك استغفر لنا قال: سوف وليس الآن، سوف هذا حرف لما ينتظر من الزمان، قال: سوف أفعل ذلك لكن ليس الآن، لماذا أخر الاستغفار؟ قيل: لواحد من أسباب ثلاثة: إما لاختيار الزمن الذي يستجاب فيه الدعوة وقت السحر، قال: إذا أتى السحر استغفرت لكم. وقيل: في السحر لكن ليلة الجمعة. وقيل: في ساعة الاستجابة يوم الجمعة هذه الأوقات الثلاثة، أما الآن فلن أستغفر لكم، انتظروا، قال أهل العلم: إن يعقوب - عليه السلام- لبى طلب أبنائه، لكنه طلب الزمان الذي يكون أمكن وأحسن حتى يدعو الله، قيل: لـمّا كان في السحر استغفر لهم جميعًا، وسأل الله أن يجمعه بيوسف وهذا الذي حصل؛ ولذلك قال أبناؤه له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولم يقولوا: على تضييع يوسف، قالوا ليكون الخطاب أشمل وأعم لكل ما فعلوه من

الإسـاءة معـه مـع يوسف وأخيـه وغيـر ذلك، وقـالوا: أيضًا ليسـتـروا المسألة لكي لا تُنكأ الجراح مرة ثانية: ﴿**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.

رجعت القافلة وأتى الشيخ الكبير يعقوب، قالوا: بلغ في تلك السنة خمسة وثمانين، وقيل بل مئة؛ لأنه توفي وهو ابن مئة وأربعة وعشرين سنة، وقيل: مئة، وقيل: أربعة وثمانين، إنما أتى مع القافلة، وقد أتو أكثر من سبعين، وقيل: ثمانين كل الحاشية والقافلة والظاهر هو وأمه؛ لأنه قال: آوى إليه أبويه، قالوا: خالته بدل أمه لأن أمه ماتت، وقيل الصحيح عند بعض المفسرين: أمه مع يعقوب فقربوا وخرج يوسف، ولكنه خرج خروج الفاتحين، خرج وهو نبي، خرج وهو ملك مصر، خرج وهو يدير خزائن مصر والكنوز والجيوش، قال خرج من الحراسة أربعة آلاف من القصر سبحان من يرفع من يشاء، يباع في سوق الرقيق، ويترك في الجب ما عنده عشاء ليلة، والآن يخرج من مصر وتطلب الدول كلها الميرة من عنده، والكسب من عنده، ويطلبون النفقة من عنده والميزانية من عنده عليه السلام، فيخرج ليقابل أباه، فلما رآه ترجل ونزل من على فرسه فرآه أبوه فترجل، قيل: فوضع فمه على جبين والده ثم بكيا فاحتضنا بعضهما فبكا الناس، وأخذ هذا الابن البار يضم والده النبي بيت النبوة والرسالة عليه السلام، فيتعانقان ويبكيان، فما ترك يوسف من قبلة حب إلا سلمها لأبيه وذاك لذلك، ثم سلموا على الأسرة ودخلوا القصر.

وارتفع هو على العرش عرش الحكم هذا أسلوب القرآن، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، قال: تفضلا؛ لأنهما أكبر من الوفد أحسن من الوفد، هم قادة الوفد، القافلة فأتى لوالده وضمه، والأم وضمها ورفعهم عنده، قال آوى إليه أبويه، وقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، قيل: إنه آواه قبل أن يدخل إلى حدود مصر، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، قال: آمنين من كل خوف ومن كل فقر، ومن كل هم، اجتمع الشمل، وأتى الفرج، وحل السرور والحضور وتكاملت الأمور بقدرة من يسير الأمور جل في علاه، قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، فدخلوا مصر وعليهم الأمان لا يخافون؛ لأنه هو - عليه السلام - آتاه الله القوة، وآتاه العزة، وآتاه السؤدد والمجد، ورفع أبويه على العرش، عرش المملكة يجلس عليه يوسف وكان مرتفعًا، فرفع أباه إكرامًا له بجانبه، وأمه بجانبه، فلما رفعهم جميعًا نزل الأب والأم والإخوة وخروا له سجدًا.

لماذا يسجدون؟ هل يجوز أن يُسْجَد لغير الله، السجود لا يكون إلا لله؟ قال: أهل العلم: هذا في شرع من قبلنا تعظيم وليس في شرعنا؛ لأنه نُسخ. وقالوا: إنهم ركعوا وخفضوا رؤوسهم تعظيمًا، وسمي سجودًا. إنما نأخذ على ظاهره، فهو جائز في شرعهم من التكريم، فلما بُعث ﷺ مُنع ذلك وجعل السجود لله؛ ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، وقال بعض العلماء: بل خروا سجدًا شكرًا لله ولكنها في بيته، فما سجدوا له، بل سجدو لله هذا من المخارج التي ذكرت فالله أعلم، المقصود تمت الرؤيا، أما قال

في أولها: ﴿**إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾، أحد عشر الآن إخوانه والشمس والقمر أبوه وأمه كلهم أتوا أمامه وهو على العرش فخروا له سجدًا فتبسم قال: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**﴾، انظر يا أبت كيف دار التاريخ، واستدار الزمان، وأتت الليالي، وتحققت الصور، ألا تذكر يا أبت وأنا طفل كلمتك وقلت: لي لا تخبر إخوتك وأخبرتهم فكانت عليَّ مصيبة ونكاية، أما رأيت كيف استدار الزمان حتى بلغنا الله -سبحانه وتعالى- هذا الوقت فهذا هو التأويل، هذه حقيقة ما عرفنا الله -سبحانه وتعالى- به، أما أخبرتني أنت بتفسير هذه الرؤيا فهذه هي الحقيقة وقعت الآن ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**﴾، ثم أتى الآن يذكر جميل الله عليه وإحسانه عليه فكانت كلها في صالح يوسف ويعقوب، فحصل له من الصبر والرفعة وتكفير الخطايا والذكر الحسن في الناس، وصاروا مثلاً للتحمل، ونالوا من الملك وصاروا معبرين للرؤى، واجتمع شملهم، وصاروا يوزعون على الناس الأطعمة والأرزاق والمال، قال: ﴿ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**﴾، لم يقل: من الجب لأن إخوانه هم الذين ورطوه في الجب، فنسي وحذف تلك الفقرة وقفز هذه المواقف تركها وأتى فقال: ﴿**إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**﴾ ترك كل الأمور صدف عنها وسامح عليه السلام، وجاء بكم من البدو بالنسبة إلى مصر كالبادية كالقرى؛ لأنها مجاورة كانت مصر في تلك هي الحاضرة للناس، كان فيها

علوم وأمم وثقافة صارت هي الحاضرة، وصارت هي العاصمة في تلك الفترة الزمنية، قال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، الآن حَمَّلَ الشيطان هذه القطيعة وهو الصحيح، قال أهل العلم: فلله دره - عليه السلام - كيف تلطف إلى أن أتى في المسألة بأبهى صورها، وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، كأنه طرف وهم طرف يقول: اختلفنا نزغ الشيطان بيننا أنا وأياهم، دخل علينا الشيطان أنا وهم من باب اللطف حتى يبين المسألة أن فيها اشتراك، وأن الخطأ لا يسلم من أحد، ولم يقل: هم المخطئون الوحيدون وهم المسيئون وحدهم، قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ هو الذي تدخل بيننا ونحن إخوة وأحباب، لكن الشيطان قاتله الله وأعوذ بالله منه، هو الذي دخل بيننا هو الذي أفسد المودة بيننا فصار الآن المخطئ، وصار الجميع متساوين عنده في ظاهر الخطاب، ولو أن المعني يوسف هو المصاب والمظلوم والمعتدى عليه عليه السلام، قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، اللطيف هو الذي يوقع القضاء والقدر بألطف الحيل، وأرق الأسباب، وألين الأساليب، هو الذي يُنَفِّذ قضاؤه وقدره بلطف، الآن اجتمعوا أتى الشيخ، وتم الاتفاق والمسامحة والمغفرة بحمد الله.

ولما علم يوسف أن ما بعد الاجتماع إلا الفراق، وما بعد الانتصار إلا الانتهاء قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، هنا توجه إلى الواحد الأحد، قال: توفني مسلمًا، أمنيتك الخالدة الصحيحة أن يتوفاك مسلمًا أسأل الله أن يتوفانا مسلمين؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، إن شاء قلبهم وصرفهم سبحانه وتعالى، فأنت إذا بقيت على الإسلام فقد نجحت وفلحت وفزت ورب الكعبة، قال: توفني مسلمًا، فيوسف -عليه السلام- يقول: **﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾**، وهنا قال: من الملك، ولم يقل: الملك كله؛ لأنه لم يحكم إلا مصر فقط، كذلك لم يعلمه تأويل الأحاديث كلها بل علمه كثيرًا منها، وإلا فالعلم المطلق للواحد الأحد جل في علاه، فاطر السموات والأرض هو الذي أبدعها وأنشأها جل في علاه.



- ١٢ -

«واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَك اليَقين»

قال: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ يا محمد، الذي سمعت في هذه القصة من أنباء الغيب أنت ما كنت تدري عنها، هل وجدت ذلك في كتاب، أو أخبرك أحد به، فأنت لم تحضر القصة أصلاً، ولم يحضر القصة أحدٌ من أصحابك، وما سمعت أنت من البشر، نحن علمناك عن طريق جبريل، ذلك القصص الذي سمعت، وقصة يوسف والكلام هذا من أنباء الغيب، يعني أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أطلعه جل في علاه على أنباء الغيب، ولم يطلعه عليه أحداً من البشر، وإنما يطلع من يشاء من رسله، ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾، لا يدري ما في الغد إلا الواحد الأحد، ولا يدري ماذا صار إلا الله، ولا يدري ما في الضمائر إلا الله، ولا يطَّلع على السرائر إلا الله، فالله يعلم الرسول عليه الصلاة والسلام، يقول: نوحيه إليك، يقول: أوحيناه إليك وانظر إلى الشرف إلى محمد ﷺ أن يختاره من بين الملايين من العباد، هذا الشخص الكريم، يوحي إليه بالقصص والأحكام، والحق والعدل، والأخلاق والأداب والسلوك يوصله سبحانه وتعالى إليك، يقول سبحانه: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ فأنت لم تحضر معهم يوم تشاوروا، وذهبوا إلى الصحراء ليرعى معهم، ولم تحضر معهم عند الجب، ولم

تحضر معهم في القافلة لما ذهبت به من فلسطين إلى مصر، ولا كنت معهم إذ فعلوا ذلك، هذا كله من أنباء الغيب، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، لما جلسوا يمكرون بأخيهم، فأنت لم تحضر هذه القصة حتى يقول لك كفار قريش: عندك خبر؛ لأنك جالس معهم، فمن أخبرك أصلاً هذه القصة، فهي لم تكن موجودة في الكتب قبلك، فمن أخبرك إلا الله؛ لأنه أراد أن تكون نبيّاً ورسولاً، هذه معجزة، قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾، من هم؟ قال: إخوان يوسف ما استمعت لهم، قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، يعني يمكرون بيوسف، ويمكرون بأبيه عليه السلام، يخططون ويدبرون ينسجون ويتآمرون، الآن أخبرناك بكل وقفة، وأخبرناك بما حدث في الجب وفي السوق عند القافلة، وفي بيت العزيز، وفي السجن وبعدما خرج، وبعدما وضعوا الصواع في رحل أخيه، وأخبرناك بالنتائج والالتقاء، إذًا ما كنت لديهم حتى تُتهم بل هو وحي من عند الله، ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقول لا تتعب نفسك، صحيح أنك حريص على هداية الناس؛ لأن الرسول حريص كما وصفه ربه، قال له سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو حريص على هدايتنا، حريص على نجاتنا، حريص على رحمتنا، حريص أن نهتدي، وأن نتبعه حريص على ألا نُعَذَّبَ ﷺ قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾، ترى أكثر الناس كفرة، أكثر الناس فجرة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وعبر بالشكور بدلاً من الشاكر، لأن صيغة مفعول تدل على الشكر قبل النعمة وبعدها.

قال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا الكلام وهذه الرسالة أصلاً، لما يعرض كفار قريش، لماذا لا يعطونك فرصة أن تُسْمِعَهم الحق، لماذا لا يجلسون معك حتى تتلو عليهم البيان من عند الواحد الأحد، أنت تسألهم أجرهم هل دفعوا لك أموالاً؟ فأجرك إنما يكون على الواحد الأحد، فكل الأنبياء يقولون لأقوامهم: وما نسألكم عليه من أجر، من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - عليه الصلاة والسلام -، لا تعطونا أجرًا، ولا نريد منكم جزاء ولا شكورا، ولا نريد من أموالكم شيئًا، وهذه هي الرسالة لا تسأل الأجر، فالأجر من عند الواحد الأحد.

قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يقولون: هؤلاء غافلون، كم من آية نمر عليها صباح ومساء، والناس أكثرهم غافلون عن آيات الله، وكأين يعني: كم من آية في السموات والأرض؟ كم من مخلوق؟ كم من أعجوبة؟ كمن من بديع صنع؟ يمر عليها العالم وهم عنها معرضون؟ أين هذه الآيات في السماء وأنت تشاهدها بنجومها وشمسها وقمرها، سبحان من رفع، سبحان من أبدع، سبحان من صور، اخرج من المدينة إلى الصحراء واخرج في الليل وانظر إلى النجوم من كوكبها؟! من رفعها؟ هناك الجوزاء والثريا تدلك على لا إله إلا الله، الصباح يأتيك رويدًا رويدًا، الضوء ثم الشمس ثم تمشي بمقدار، ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، الليل وهو يقبل يجتاح العالم بردائه يغطينا الليل أقبل علينا، آيات من آيات الواحد الأحد، في الجبال وهي تغوص في

الأرض، هي تُثَبِّتُ الكرة الأرضية، ثلثاها في الأرض والثلث مثل الناب خارج وموزع على الكرة الأرضية لئلا تميل بنا، لئلا تتأرجح، في الهملايا في الأطلس العربي كلها موزعة بقدر من الواحد الأحد، الماء الذي نشربه لا لون ولا طعم ولا رائحة منْ خلقه؟! من أوجده؟! ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾، في الهواء إذا توقف علينا مُتْنَا، ويرتفع فلا يزيد ولا ينقص، السمك وهو في الماء يعيش عيشة أخرى، عالم آخر، عالم الأسماك آلاف الفصائل من عالم الأسماك تهاجر وتبيض، وتأكل وتتنفس، والله هو الذي خلقها في عالمها، ماذا في عالم الطير في الهواء، ولا طائر يقلب جناحيه يقبض ويمسك، بتدبير من الواحد الأحد سبحانه، ماذا في الآيات كلها -جل في علاه- تقدست أسماؤه لا إله إلا الله، الماء في الجدول والغدير في الخمائل في الجداول في كل شيء له آية.

فيا عجبًا كيف يُعْصى الإلـ

ـهُ؟! أو كيف يَجْحدهُ جَاحِدٌ

وفي كلِّ شيءٍ لَهُ أيةٌ

تَدُلُّ على أنَّهْ واحِدُ

عالم النمل مملكة النمل كيف تعيش؟ كيف تبيض؟ كيف تخزن قوتها؟ أذكر لك ثلاثة أسطر سريعة عن النمل أولها: النمل تأخذ الحب، وتأخذ القوت في الصيف وتدخره إلى الشتاء، هي لا تأكل منه شيئًا حتى يأتي فصل الشتاء من علَّمها؟! إنه الواحد الأحد،

تجعله في المخازن في بيوتها، ولو أَخَذَتْ الحب في بيتها الطيني لنبت الحب، فإنها تأتي إلى الحبة فتقسمها نصفين حتى لا تَنبت، فتجعل النصف في المخزن، والنصف لا ينبت هذا الثاني، أن النملة إذا أرادت أن تمر بماء نبع صغير عملت هي وأخواتها حاجزًا ثم مدته، وهذا معروف ثم مشت عليه، ثم تسحب الشبك إلى الجهة الثانية لكي تعبر من علمها؟ إنه اللطيف الخبير، ونحن نشاهد أحياناً النملة تسحب جرادة، وإذا لم تستطع أن تسحبها سارت إلى أخواتها وأعطتهم إشارات ضوئية للمساعدة ويأتي معها من يساعدها على سحب الجرادة حتى يدخلونها إلى بيتهم، مَنْ علمها؟ إنه اللطيف الخبير، عالم النحل من علم النحلة أن تمشي إلى الوديان وتأخذ الرحيق من الزهرة وتأتي إلى الخلية وتضع العسل، وضع أمامك ألف خلية في وادٍ وأطلق النحل، تجد أن كل نحلة عادت إلى خليتها دون أن تخطئها، فمن علمها ذلك، فالنحلات تتبع سيدها، ثم هناك عاملات لا يخرجن بل يؤتى لهن بالرحيق، والزهر والورد فيجلسن يعملن منه الشمع والبناية من داخل الخلية، أنت إذا وضعت الخلية بشكل دائري بنى النحل الخليلة على شكل دائرة، إن وضعتها سداسية أعطاك النحل شكلاً سداسيًا، وإن أعطيت النحل مربعاً أعطاك شكلاً رباعيّاً، من الذي علمها من الذي هداها من الذي خلقها؟ إنه الواحد الأحد جل في علاه وآيات لا تنتهي أبدًا، السلحفاه انظر لها الآن تضع بيضها في الرمل بعيد عن الماء، يفقس الصغير فينطلق سريعًا بإذن الواحد الأحد إلى الماء حتى يغرق فيه؛ لأن الله أعطى كل شيء خلقه ثم

هدى، عجائبه لا تنتهي تدل على السميع البصير، يقول سبحانه **﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** لماذا أكثرنا معرضون الآن لا نتفكر، أشغلتنا أعمالنا أشغالنا وشهواتنا ومتطلباتنا عن هذا الكون المفتوح، عن هذا القدرة البديعة للواحد الأحد، فأكثر الناس معرض حتى لو قلت له: يا أخي انظر في النجوم، تأمل قدرة الواحد الأحد، يقول عرفناها من زمان، هل أثرت في حياتك، وأثرت في نفسك؟ هل بكت عينك؟ هل دمعت عينك؟ لو خلا إنسان وحده وتفكر في مخلوقات الله ودمعت من عينه دمعة حرمه الله عن النار، هذا الرجل الذي يدمع دمعة واحدة يظله الله في عرشه يوم لا ظل إلا ظله، «... **ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»، آيات لا تنتهي، تفكر في الصحراء وفي السماء وفي الهواء، وفي آيات الله، وفي الكون ما تنتهي أبدًا في عالم الحيوان عالم النبات، وعالم الأجرام والأفلاك، تعالى الله لا إله إلا هو سبحانه، **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**.

قال بعض المفسرين: لا يؤمن الكفار في الظاهر إلا وهم مشركون في الباطن، وقيل: إذا آمنوا أنه الخالق الرازق سبحانه فإنه مشركون في عبوديتهم، يؤمن كفار قريش أن الذي خلق الخلق هو الله، الذي رزق الناس هو الله، لكن إذا قيل لهم: وحدوا الله واعبدوا الله، قالوا: لا، قال: وما يؤمن أكثرهم هذا من معاني المفسرين، لا يؤمن بالله الخالق الرازق إلا وهم مشركون في عبوديته وألوهيته، وقال بعضهم بل لا يؤمن المنافق في الظاهر إلا وقد كفر في الباطن، تجده أحيانًا: يصلي؛ لكنه يكذب في الباطن،

يوجد الآن من يلحد في الله عز وجل من الجيل هذا، من بني جنسنا يشك في الرسالة رسالة الرسول ﷺ، وقال بعضهم، لا يخلو أكثر الناس من شرك كما وصف ﷺ.

من يكون الإنسان بقوته؟! الكرة الأرضية بما تراها الأن تزلزل بكلمة «كن» من الواحد الأحد فيقول: ﴿**أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ**﴾ يعني أمر مجلجل يفشى أسماعهم وأبصارهم يجلجلهم ويأخذهم من عذاب الله، أو تأتيهم الساعة بغتة قال: فجأة كل نبي وملك من الملائكة لا يدرون متى الساعة ﴿**عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى**﴾، الله سبحانه وتعالى استأثر بعلم الساعة، لا محمد ولا جبريل ولا ميكائيل ولا إسرافيل لا يدرون متى الساعة، الله عز وجل علم سر الساعة وقتها سبحانه في زمان في لحظة يقيم الساعة، وينهي العالم، وتقوم القيامة لا يعلم أحد، كلنا لا نعلم مهما صار العلم.

قال: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، يا للروعة هذ الآية جامعة مانعة كافية شافية يقول نبينا محمد ﷺ: هذه سبيلي، هذه سبيل الدعوة حتى أموت، سبيلي واضح، أنا عندي أدلة من الله عز وجل، أنا أدعوكم إلى الله، لا إله إلا الله، هذه سبيلي هذه وظيفتي، ما عندي وظيفة ثانية، ولا عندي مناصب أخرى، أنا أكبر ما أرسلت به أن أكون داعية، تدرون أشرف منصب في الحياة هو منصب الداعية ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي**

﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أتدرون ما أجر الداعية؟ الله في سمائه وملائكته وحملة عرشه حتى النملة في جحرها، والحوت في الماء، والطير في الهواء، يصلون على من يعلم الناس الخير، يصلون عليه ويدعون له، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، صلاة الله الرحمة والرضوان، وصلاة الملائكة أن تدعو له، بعض العلماء: يكفي منصب الداعية أن يذكر الهدهد في القرآن؛ لأنه أكبر داعية لما أُرْسِل إلى بلقيس تكلم أني داعية إلى سليمان ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، وأصبح فصيحًا ومتحدثًا، وسمعه سليمان وعذره، أنكر على بلقيس وألقى محاضرة في التوحيد في سورة النمل، قال: الهدهد تعجب من أمرين: تعجب من امرأة تحكم الرجال، والثاني: يقول كيف يعبدون الشمس؟ والله خلق الشمس. الهدهد يقول: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ الملكة تحكم اليمن، أين الرجال؟ ونحن لا نقول في المرأة شيئًا، المرأة لها أثرها في الحياة، المرأة أُمُنا، وأختنا، وبنتنا، لكن لا تحكم الدولة، يقول الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أعوذ بالله ما الشمس؟ الشمس مخلوق يغيب ويظهر. الله لا يزول ولا يحول جل في علاه، هو الذي خلق الشمس والقمر، هذا لما صار داعية شرفه الله. فالرسول هو الداعية الأعظم، وهو سيد الدعاة يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أنا سبيلي أن أدعو إلى الله ليلاً ونهارًا، الرجال النساء، في السفر في الحضر، يا أخي: اجعل من نفسك داعية، الآن أنت اجعل شغلك الشاغل داعية، قال: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، فكل من اتبع محمدًا فهو

على بصيرة، وهذه بشرى، لكن كل بحسبه، هي نسبة واحد على عشرة، واحد على تسعة، واحد على ثمانية، وهكذا فكلما اقتربت من اتباع الرسول ﷺ بقدر اقترابك من اتباعه فلك نسبة من هذا، فالبصيرة التي معك بقدر ما أخذته من النور الذي أخذته منه عليه الصلاة والسلام، قال: أنا ومن اتبعني، أحباب رسول الله هم أتباعه، ومن ادعى محبته ولم يتبعه فهو كاذب، ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾، أحب الناس إلى الرسول ﷺ أكثرهم اتباعًا له، الولي هو من أَكْثَر اتباع الرسول والتزم مسيرته وأخلاقه وعبادته ﷺ، قال سبحانه: ﴿**وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ سبحانه تقدس الله، تنزه الله عما يشرك به شيئًا، حتى الأنبياء خافوا من الشرك، حتى الأنبياء خوفهم من الشرك، وأعظم ذنب في العالم الشرك، وأكبر خطيئة في المعمورة الشرك، وأجرم جرم في الدنيا الشرك ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ شرك في العبادة يعبد غير الله، أو يدعو غير الله، كمن يتضرع عند القبور ويدعوهم بالحاجات، كمن يذهب إلى السحرة والكهنة والمشعوذين، كمن يعتقد في الكواكب أنها مؤثرة، أو في النجوم كمن يقدم النذور والذبائح لغير الله سبحانه وتعالى، كمن يصرف شيئًا من العبادة لغير الواحد الأحد، هذا لا يقبل عمله ويحبط عمله وهو من الخاسرين، ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ قال سبحان الله: ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ**﴾ أصلاً ما نزَّل الملائكة، هم مثلك من أهل القرى، عندهم ذرية وعندهم زوجات ويسكنون في بيوت، ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، يبيعون ويقفون مع الناس، لكن الله ميزهم بالعصمة والرسالة فهم أنبياء بشر؛ لأنه لو نزل علينا ملك كنا قلنا: لو أنه بشر لاتبعناه، لكن ما دام أنه ملك فله قدرات خارقة أصلاً، نحن لا نقدر أن نتبع ملكًا، انظر إلى كفار قريش، قالوا: لو نزل ملك، ولو نزل ملك قالوا: ما نتبعه؛ لأنه ليس منا، وإن جاء منهم قالوا: هم منا أصلاً الواجب أن يأتي من غيرنا، ولو جاء من غيرهم، لقالوا: لا نريده؛ لأنه جاء من السماء، إذًا ما تريدون؟ يقول: إن كنتم تعتبرون، فمحمد - صلى الله عليه وسلم - من مكة من القرى، فالرسل كلهم من آدم ونوح وإبراهيم، هم بشر من أهل القرى كما وصفهم سبحانه وتعالى قال أهل العلم: إن النساء لا يكون منهم نبيًا ولا رسولاً، وخالف ابن حزم الظاهري غفر الله له، قال: مريم كانت نبيًا، قال أهل العلم: يقول سبحانه ﴿**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ**﴾، ما قال: نبية أمه صديقة، أما الوحي فهو الوحي الخاص الذي أوحاها الله إليها، لكن لم يرسلها كما أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم ينبئها الله عز وجل، فهي امرأة لم تنبأ، إذًا الأنبياء رجال، لكن يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً**﴾ لأن الرجال أكفأ وأصبر؛ قد تكون النساء أفضل من بعض الرجال، لكن في النبوة ﴿**رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم**﴾ يعني: ليس من أنفسهم يقترحون النبوة، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً**

نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقول: لماذا لا يسير كفار قريش وينظرون في البلدان والأقاليم ويسافرون إلى الشام وإلى العراق، ألم يروا القرى التي دمرناها لـمّا أعرضوا عن منهج الله؟ أما رأوا ما فعلنا في الأقاليم لـمّا انحرفت عن كلمة الله ورسالته، أما رأوا ماذا فعلنا بأعدائنا؟! هم رأوا بيوتهم ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ هم رأوا قرية قوم لوط، ومدائن صالح، ورأوا الأحقاف ورأوا إرم ذات العماد، هذه ممالك موجودة، هذه بيوت، ورأوا كفار قريش، إنها أماكن موجودة، إنها أمم أهلِكت، قالوا: لماذا لا يعتبرون؟ مصائب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يقول هذه الدنيا وما فيها من متع زائلة، ولو انتصر فيها الباطل هذه منتهية أصلاً. قال: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، والله إنها خيرٌ وأبقى، وإنها أحسن، وإنها أمتع وإنها أجمل، الآخرة لمن اتقى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لا وصب ولا نصب ولا مرض، لا همَّ لا غَمَّ لا هرم لا سقم، في جوار الواحد الأحد في زمان في سلام في حفظ ورعاية، فالتكاليف العبادية تسقط، لا صلاة لا صيام لا حج لا عمرة تسبيح كالنفس، نعيم لا ينتهي، نظر لوجه الكريم، نسأل الله لنا ولكم ذلك أفلا تعقلون؟ أين عقولكم لو عندنا عقولنا ما لهونا وغفلنا وقدمنا مطالبنا الدنيوية، ومجاملات اجتماعية على مطلوب الواحد الأحد، أفلا تعقلون، أين العقول؟.

قال: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ يقول أهل العلم: حتى إذا استيأس الرسل، قال بعضهم: حتى إذا يئس الرسل من إجابة قومهم لهم. هذا القول الراجح، أي: أن الرسول ييأس من قومه أن يتبعوه قال: فلا يوجد هناك استجابة لي من قومي، وبعضهم أن الرسل يستبطئون النصر لتأخيره، واستدل بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴿١٠﴾ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾ لكن الأرجح القول الثاني، قال: ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا**﴾ في الآية معنيان: قيل: إنهم قد كذبوا فظنوا أن قومهم كذبوهم فلم يؤمنوا بهم، وقال: وظن قومهم أن الرسل كَذَّبوهم وليس عندهم رسالة، ظن القوم أن الرسل كذبوا عليهم، فليس عندهم رسالة أو نبوة، إنما هم من أنفسهم اقترحوا عليهم ذلك، وظنوا أنهم قد كذبوا، الآن وصل اليأس ووصل الضيق، وقال: ﴿**جَاءَهُمْ نَصْرُنَا**﴾، فالنصر يأتي بعد الضيق بعد الشدة، وهذا من الرسالات الكبرى، والدعوة أنه لا بد أن تجد من يستهزئ بك. فيقول سبحانه: ﴿**جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ**﴾، فالنصر يأتيك متى كنت مع الله، ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾، والعاقبة للأنبياء دائمًا الآن، لمَّا اصطدم موسى وفرعون كانت العاقبة لموسى، نوح وقومه نجا نوح وغرق قومه، صالح، هود كلهم نجو، محمد نوح عيسى كلهم كانت لهم العاقبة، كانت الدائرة على أعدائهم، قال: ﴿**وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ لا إله إلا الله يا له من بأس، أخذه سبحانه متنوع، يأخذ مرة بالصيحة، ومرة

بالحاصب، ومرة بالفاسق، ومرة بالطوفان، ومرة بالمرض، ومرة بالزلزال، ومرة بالبركان، ومرة بالإحراق، ومرة بالريح جل في علاه؛ لأنه يتحكم في الكون بكلمة «كن» ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. انتهى الكلام الآن اسمعوا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هذه خاتمة السورة من عنده عقل يعتبر، فمن عنده ذرة تفكير وضمير يمتثل هذه السورة وغيرها من سور القرآن، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ كما يقول سبحانه: والله إنها عبرة لمن كان له قلب، لمن عنده يقين وتخلى عن الملهيات التي أخذت أوقاتنا وعقولنا وقلوبنا، وصرفتنا عن القرآن، وصرفتنا عن أحسن القصص، وصرفتنا عن منهجنا الرباني، صرفونا بقصص خيالية، وكتب في السوق تباع لا تسمن ولا تغني من جوع.

قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾، يعني حديثًا مختلفًا يعني: هذا الحديث لم نختلقه بل هو الحق لا زيادة ولا نقصان؛ لأن الله الملك الديان، الملك الرحمن تكلم بهذا القرآن، فقوله حق، وكلامه حق، ووعده حق، وخبره حق، وقصصه حق؛ لأنه حق يحق الحق لا إله إلا الله.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فكل الكتب صدق، التوراة والإنجيل والزبور، فهي جاءت مصدقة للقرآن أيضًا لكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء في إحكام، كل شيء، بدءًا من أصول الأحكام والملل والأخلاق الآداب السلوك والعبادات في القرآن وغيرها ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وتفصيل كل شيء موجود وهدى يهدي به الله من يشاء، أحسن ما يهديك أن تقرأ القرآن بتدبر

وأن تفهم معانيه، وأن تسأل عنه، يمر بك يوم واحد وأنت ما سألت عن تفسير آية.

أسأل الله العلي القدير أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همومنا وغمومنا، نسأله أن يجعله شافعًا لنا مشفعًا، فاللهم اجعله شاهدًا لنا لا شاهدًا علينا، حجة لنا لا حجة علينا، نسأله أن يجعلنا ممن يقرؤه حق قراءته، ويتلوه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وأن نعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه، نحل حلاله ونحرم حرامه، نسأل الله أن يجعل القرآن سميرًا لنا وأنيسًا ورفيقًا وصاحبًا ومؤنسًا في الوحدة، وفي القبر، ومنجيًا من غضب الله وعذاب الله، ونسأله -سبحانه- أن يجعل هذا القرآن حجة لنا عنده يوم العرض الأكبر ليأخذنا إلى جنات النعيم، ويدخلنا الفردوس الأعلى، ويوقفنا مع الصالحين مع الأنبياء مع الصديقين مع الشهداء مع الأبرار. نسأله عَزَّ في علاه أن يتقبل منا ومنكم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.. اللهم آمين.

فوائد وعِبر من قصة يوسف

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

مسكين من لم يتدبر القرآن، مسكين من لم يأخذ بعبر القرآن، مسكين من أضاع نفسه وحرمها لذيد الكلام، وحلو البيان، مسكين من عمي بصره عن الدرب، وعميت بصيرته عن الطريق، فأكبر شافع وهادٍ، وأيسر طريق وأسهله للفلاح والنجاة هو القرآن، فشدَّ المئزر، واغتنم الوقت، وبادر بالعمل، عسى أن تكون لك حظوة، وعند خالقك منزلة، ومن سور هذا الكتاب المبين، والحجة البالغة، والمعجزة القاهرة، سورة يوسف التي حفلت بالكثير من الفوائد والعبر ومنها:-

١ - أن القرآن منزل وليس مخلوقًا، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٢ - أن قصص القرآن أحسن القصص في التاريخ، فليس له شبيه، ولن يأتي مثله نظير، ففيه المتعة والتشويق، والأدب والبلاغة، والإثارة والانتظام، والإبداع والتركيب، ولن تتوافر عناصر القصة كاملة في غير قصص القرآن ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

٣ - جواز أن يحدث الإنسان من يحب بما رآه، وبما يحصل له من الخير، عسى أن يظفر منه بدعوة يفتح لها الباب، وتكون سببًا لسعادته في الدنيا والآخرة.

٤ – إذا ابتلي الإنسان بمصيبة فليصبر، وليعلم أن الأنبياء وهم أفضل الخلق ابتلوا بلاءً عظيمًا فصبروا وظفروا بالأجر العظيم من الله.

٥ – من أعطي فراسة التأويل فقد أعطي خيرًا كثيرًا، فليتق الله فيما يقول.

٦ – براعة الأسلوب القرآني الماتع الشائق في عرض القصص، ففيه الاختصار والإبداع والكفاية والرمز، أما التفاصيل فهي لذوي الألباب، والراسخون في العلم.

٧ – في قصة يوسف وإخوته آيات لمن يسأل عن الصدق والتضحية والخوف من الله والصبر على المصائب، وعدم الجزع أو التشكي.

٨– من كان الله – سبحانه – معه فلا يخف، فإن الله – سبحانه – لا يضيع الوديعة إذا استودعها المسلم إياه، فاستودع الله نفسك وقلبك، واسأله أن يحفظك ويهديك وينصرك ويؤيدك.

٩ – القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والمحبة من الله؛ لذلك فليس من الغرابة أن تجد الأب يميل إلى ابن من أبنائه دون الآخرين؛ إما لتميزه ونجابته وذكائه، أو لبره إياه.

١٠ – حرمة الكذب، وتعظم حرمته إذا كان فيه غشٌّ وتدليسٌ على الوالدين.

١١ - حث المؤمن على قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند المصائب.

١٢ - إرشاد المسلم إلى الصبر وعدم الجزع عند المصائب، قال تعالى على لسان يعقوب: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾.

١٣ - لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

١٤ - وجوب قَدْر أهل العلم قَدْرهم واحترامهم وتوقيرهم وإكرامهم ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا**﴾.

١٥ - إن التمكين في الأرض يكون للأولياء والصادقين مع الله في السر والعلن.

١٦ - الله - سبحانه وتعالى - يبتلي المؤمنين على قدر أعمالهم؛ لذلك نجد أن أشد الناس بلاءً الأنبياء فالأمثل فالأمثل.

١٧ - النفس البشرية أمارة بالسوء، وتضعف في مواطن الخلوة، فاحرص على تحصين نفسك بالأذكار والأدعية، والنفس إذا لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

١٨ - احفظ الله في مواطن الرخاء يحفظك في مواطن الشدة. «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك».

١٩ - تحريم الغيبة والنميمة والسعي بالحديث في أعراض الناس، فإن هذا مما يجب الحذر منه، والابتعاد عن مجالسته. قال تعالى: ﴿**فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾.

٢٠ - حث المسلم على ذكر الله في كل المواطن ولا سيما إذا رأى ما فيه بعض إخوانه من الخير والإنعام والصحة والجمال. وليسأل الله من فضله، وليستزد وليكثر، فإنما يسأل كريماً.

٢١ - إذا ابتلي المؤمن بدينه فليصبر وليؤمل بالأجر من الله - سبحانه - حتى لو كان بديل ذلك السقم بعد الصحة، والسجن بعد الحرية، والذل بعد العز.

٢٢ - على المسلم أن يختار النصرة لهذا الدين ولو كان ثمن ذلك الصحة والنفس والمال.

٢٣ - حث المسلم على ملاطفة الآخرين والضحك معهم ومؤانستهم إذا كان ذلك فيه تآلف وترابط وتعاون أو حتى ترغيبٌ في الإسلام.

٢٤ - إذا سئل الإنسان عن مسألة يعرفها ويعلمها فلا يكتمها، وليدعُ إلى الله بكل ما يستطيع.

٢٥ - حث المسلم على تَصَيُّد الفرص المناسبة لجمع الناس على كلمة سواء، «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

٢٦ - على المسلم أن يبذل المزيد من الوقت والمال والنفس لتصحيح المعتقد الديني قبل تصحيح أي شيء آخر، وليبذل أكثر ذلك مع الأعاجم وصغار السن.

٢٧ - الجأ إلى الله في الرخاء والشدة فلا ناصر لك إلا هو سبحانه وتعالى. جاء أعرابيٌ إلى رسول الله ﷺ فقال له: إلى من تدعو؟ قال الرسول ﷺ: **إلى الله**، قال الأعرابي: مَن الله؟ قال الرسول ﷺ: «**إذا أصابتك سنة شهباء فدعوته كشف عنك، وإذا أصابتك سنة قحط وأجدبت الأرض، ومات النبات وأقحطت الأرض فدعوته كشف عنك**».

٢٨ - أفضل ما مدح به البارئ هو ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وفي المسند أن أسود بن سريع جاء إلى الرسول ﷺ، قال يا رسول الله؛ إني مدحت ربي بقصيدة، قال عليه الصلاة والسلام: أما إن ربك يحب المدح.

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد
لعـــــــزة نفس أو علو مكان
لما ندب الله العبـــاد لشكره
فقال اشكروني أيها الثقلان

٢٩ - احذر ممَّا تكتبه واتق الله فيما تكتب. فكل سيحاسب ولو كان مثقال ذرة.

فــلا تكتب بكفك غـيـر شيء

يسـرك في القـيـامـة أن تراه

٣٠ – التعظيم لله – سبحانه وتعالى – هو الخالق الرزاق المتفرد بالبقاء، أما ما يُعظم من البشر وأجناس الخلق فهذا من ضعف العقول، وسخف النفوس، وضعف التوكل، وحضور التواكل، فكل شيء هالك إلا وجه.

٣١ – ادعُ الله بأسمائه الحسنى الشرعية، فلا يجوز أن تسمي الله بغير أسمائه التي في الكتاب والسنة التي ثبتت عن الرسول ﷺ، فلا تسم الله إلا بأسمائه التي سمى بها نفسه، ولا تصفه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، يقول الشافعي: آمنت بالله، وبما جاء من الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله.

٣٢ – على المسلم أن يدرك تمامًا أن لا معافي إلا الله، لا رازق إلا الله، لا محيي إلا الله، لا مميت إلا الله، لا يفك الأسير إلا الله، ولا يفرج الكربة إلا الله، فمن شكى واشتكى لغير الله فهو في ضلال مبين.

ولنا في قصة أهل الغار المثل الأكبر، ففيها الاعتقاد الصحيح، والالتجاء الصادق، فضلاً عن قصص الأنبياء والأولياء والصالحين.

٣٣ - على المسلم أن يكثر من الاستغفار على كل أحواله، فعن أبي داود - رضي الله عنه - قال: «**من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**».

٣٤ - الرؤى لها حقيقة، وهي على أقسام: قسم من الرحمن، وقسم من الشيطان، وقسم أضغاث أحلام، فالتي من الرحمن هي المبشرات، فأخبر بها من تحب فقط، وأما التي من الشيطان، فهي الرؤى المفزعة المرعبة المخيفة فلا تخبر بها أحدًا، وأما أضغاث الأحلام، فهي التي تجري في الحياة، كأنها أمور عادية فلا فزع فيها ولا خوف.

٣٥ - أصدق الناس رؤيا هو محمد ﷺ فقد كان يعبر الرؤيا فتأتي كفلق الصبح، وكان يجلس بالناس بعد صلاة الفجر، فيقول: أيكم رأى رؤيا، فيعبرها، فتأتي كفلق الصبح لا يتغير فيها شيء.

٣٦ - الدعوة إلى الله - عز وجل - من أعظم الأعمال الصالحة ومن أشرف مقامات العبودية للموحدين والمؤمنين، وهي طريقة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن أراد الخير لنفسه ولمجتمعه فليكن داعيًا إلى الله - عز وجل - بالتي هي أحسن، وبالحكمة والموعظة. «**بلغوا عني ولو آية**».

٣٧ - يوسف - عليه السلام - لم ينس الدعوة إلى الله حتى وهو في السجن، فكيف بمن هو حرٌّ يملك المال والنفس والصحة.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

٣٨ - الدعوة إلى الله - سبحانه - قد لا تكون باللسان فقط، بل بالأخلاق والتعامل والصدق مع الآخرين «فعامل الناس كما تحب أن يعاملوك».

٣٩ - الله - سبحانه وتعالى - يسوق المبشرات، ويهيئ أسباب النصرة والعزة والتمكين لعباده الصالحين حتى ولو كانوا في الزنازين.

٤٠ - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أفضل منزلة بعد النبوة هي الصديقية ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

٤١ - يوسف - عليه الصلاة والسلام - أراد أن يثبت براءته فرفض الخروج من السجن عندما دعاه الملك، وهذا يؤكد صدقه وصبره واحتسابه الأجر من عند الله.

٤٢ - يقول بعض أهل العلم: تمر بالعبد نفوس ثلاثة، مرة تأمره، ومرة تلومه، ومرة مطمئنة، فأما الأمارة فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وأما اللوامة فقد قال تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾. ومرة مطمئنة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

﴿٢٧﴾ **ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴿٢٨﴾ **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي** ﴿٢٩﴾ **وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ نسأل الله أن يجعل أنفسنا مطمئنة.

٤٣ - لا تفتخر ولا تباهي بما فعلت من طاعات أو صبر أو احتساب، فالافتقار والانكسار خير من الصفاء مع العجب، تفتقر إليه سبحانه، قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في كلمة شرحها ابن تيمية - رحمه الله - واستحسنها، قال: رب خطيئة أدخلتك الجنة، رب طاعة أدخلتك النار، قال ابن تيمية في معنى كلامه: «رب رجل ارتكب معصية وخطيئة فتاب وانكسر، وأناب وبكى وتأسف فأدخلته الجنة، ورب رجل فعل طاعة فباهى بها، وتكبر وأعجب فدخل بها النار».

٤٤ - على المسلم ألا يتكبر لنفسه أو يختال في مشيته وعليه بالتواضع فهو سمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وقد قال الحسن البصري: «حق لمن يذهب إلى الخلاء ثلاث مرات كل يوم أن يتواضع لربه». ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾.

٤٥ - من الأمور الواجبة على المسلم أن يعفو ويصفح، ولنا مع قصة يوسف - عليه السلام - وقفة، فهو وصفح عن امرأة العزيز وعفا عنها، وعفا عن إخوانه، وعفا - عليه السلام - عن كل شيء وصفح فآتاه الله - عز وجل - عِزّاً بسبب هذا، كما صح عنه - عليه الصلاة والسلام -: «**وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً**».

وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: «تسعة أعشار حسن الخلق التغافل».

٤٦ - يجب على المسلم ألا ييأس في الدعوة إلى الله، بل يبذل جهده، ويسأل الله التوفيق، فيوسف - عليه السلام - لم ييأس من الدعوة إلى الله، وكان ثمرة ذلك إسلام امرأة العزيز، فهي التي أرادت أن تكون سببًا لهلاكه، فكان سببًا في هدايتها.

٤٧ - يجيء القصص في القرآن تسلية للنبي ﷺ وتذكيرًا له بما حصل للأمم السابقة، ولتثبيت الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وقد يكون دليلاً على إثبات نبوته، وأنه يوحى إليه كما سبق في أولها.

٤٨ - من فوائد قصة يوسف - عليه السلام - جَعْلُ يوسف قدوة لنا في الدعوة إلى الله والصبر، والاحتساب، والعفو عند المقدرة، وقد قيل: أفضل عفو ما كان عند المقدرة.

٤٩ - في قصة يوسف كثير من القيم التربوية والخلقية ففيها، الدعوة إلى الله، والصبر، والالتجاء، والعفاف، والتوبة، والعفو، والصدق، والاحتساب، والتربية، والتوجيه، إلى غير ذلك.

٥٠ - أحسن الحديث، وأحسن المواعظ، وأحسن القصص هو القرآن الكريم، فاعتصم به، وتدبر تلاوته، واعمل بما فيه، وتبرك به فإنه نجاةٌ في الدنيا والآخرة.

٥١ - يجوز للإنسان أن يطلب المنصب، إذا كان مصلحة له وللمسلمين، فالإنسان إذا آنس في نفسه رُشْدًا في دائرة أو مكان وعلم أنه أهل لذلك بعلمه وثقافته وفهمه، فله أن يطلب ذلك، شريطة أن يكون فيه خير وصلاح له وللمسلمين.

٥٢ - وجوب تزكية النفس للحاجة، قال أهل العلم: «إذا ابتليت ببلوة، أو نزلت عند قوم لا تعرفهم، فلك أن تزكي نفسك، لا للكبر، ولا للرياء ولكن القصد للتوصل إلى المصلحة الشرعية».

٥٣ - المحسن له العاقبة دائمًا، فمن أحسن في أموره، واتقى ربه، جعل الله -سبحانه - له العاقبة طال الزمان أم قصر، كما هو الحال مع يوسف - عليه السلام -، فإن الله جعل له العاقبة في كل أموره، لما اتقى ربه، وعلم بمقتضى الشرع الذي علمه - سبحانه وتعالى - فلا تيأس ما دام أنك محسن مع الله، واعلم أن العاقبة لك - ومعك، ولو أُصِبْت بحيف أو ظلم أو مصيبة، فالعاقبة ستكون معك.

٥٤ - أجر الآخرة أعظم، فالله لما ذكر الدنيا وتمكنها، وذكر الخزائن والملك، ذكر أجر الآخرة، فما عند الله - سبحانه - في الآخرة هو الأحسن، فيا بشرى الصابرين الصادقين.

٥٥ - جواز الاحتيال للمصلحة، بشرط ألا تحل حرامًا، ولا تحرم حلالاً، كما فعل يوسف - عليه السلام - عندما رد بضاعتهم إليهم، وعندما وضع الصواع في رحل أخيه، وذلك للوصول إلى الحقيقة.

٥٦ – وجوب إكرام الضيف، والنازل عليك، وهذه سيرة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام – فلابد أن تكرم ضيفك، وتهش في وجه، وتستقبله، وتقدم له ما عندك بلا تكلف ولا إسراف، لأن استقبال الضيف وضيافته من العمل الصالح الذي وصَّانا الله به – سبحانه – ووصانا به الرسول ﷺ، فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**». ويؤخذ هذا من قصة يوسف – عليه السلام – لما أنزلهم وأكرمهم، وزادهم في الكيل، ورد الثمن.

٥٧ – وجوب إيفاء الكيل، قال تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾.

٥٨ – حفظ الله لأوليائه الذين يصدقون معه، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، فقد حفظ الله – عز وجل – يوسف – عليه السلام – في الجب وفي السجن وفي القصر، لأنه صدق وآمن وصبر فظفر.

٥٩ – عظم رحمة الله، وسعة حلمه، فلا تقنط الناس من رحمة الله، ولا تغلق عليهم هذا الباب، وافتح لهم باب الأمل، فإذا رأيت عاصياً فادعه إلى الله، وقل له: إن باب التوبة مفتوح، ورحمة الله وسعت كل شيء.

٦٠ - مشروعية طلب الكسب والرزق، وانظر إلى أبناء النبي يعقوب - عليه السلام - وهو يرسلهم من عنده إلى طلب الميرة من مصر، فعلى الإنسان طلب الرزق والعمل، وترك الكسل.

٦١ - شظف عيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيعقوب - عليه السلام - يرسل الجلود المدبوغة، وكؤوسًا مكسرة، وبعضًا من الدهن والسمن إلى مصر، ليأخذوا بدلاً منها القمح لأهله ولأسرته، وهم في مجاعة وقحط وشدة، وهو نبي الله، والملوك المعاصرين له كانوا يملكون خزائن الذهب والفضة، فانظر إلى تفاهة الدنيا عند الله، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء.

٦٢ - قوله: ﴿**وَنَمِيرُ أَهْلَنَا**﴾ الإنسان بطبعه مفطور على حب المال، وهذا ليس مذمومًا، لكن المذموم الحب الذي يطغي صاحبه، ويصرفه عن الدين، ويرتكب بسببه المحرمات.

٦٣ - تأكيد العقود بالأيمان، وأنها لا تخالف الشرع، أي: الحلف على الشيء، وهذا نأخذه من قوله: ﴿**تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ**﴾. والرسول ﷺ شهد وطلب البينة، واستحلف وحلف.

٦٤ - على العبد أن يحسن الظن بالله، وفي الصحيحين: «**أنا عند ظن عبدي بي**» فحسن الظن بالله واجب شرعي، فإذا ظننت بالله أنه يغفر لمن استغفر، ويتوب على من تاب، وأنه يفرج الكربات، وأنه يجيب دعوتك إذا صدقت، وأنه أقوى الأقوياء،

وأنه أرحم الراحمين، وأنه أكرم الأكرمين، أعطاك الله ما تمنيت.

٦٥ – حرمة اليأس، وبخاصة الذي يوصل الإنسان إلى الضعف والانحطاط، وفي الحديث القدسي: «**يا بن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**».

٦٦ – من صفة الأنبياء الكرام الصفح والعفو وعدم ذكر الذنب والخطأ أو التعريض به، فالكريم يصفح وينسى الخطأ ولا يذكره.

٦٧ – على العبد أن يعترف بخطئه أمام خالقه، قال أهل العلم: «إن الله يحب من العبد أن يقول: يا رب؛ أنا أذنبت، وأخطأت، واعترفت وقصرت؛ قال ابن القيم في مدارج السالكين: «فيأتيه النداء، وأنا غفرت لك وسترتك ورحمتك»».

٦٨ – على المؤمن أن يتقي الله ويصبر، فلا بد للعبد من عملين كريمين، الأول: أن يفعل المأمور، والثاني: أن يجتنب المحظور، وليزد الرضا بالمقدور، فإذا فعل المسلم ذلك وصل إلى منازل الأبرار الأخيار عند الملك الجبار، والكريم الغفار.

٦٩ – على المسلم أن يستدر رحمة الله وعطفه، بالصدق في القول والعمل، وطلب الرحمة في دعائه، والاعتراف بالخطأ أمام الله، والوقوف أمامه موقف الذليل المنكسر، وأن ترحم الضعفاء والفقراء وتتصدق عليهم.

٧٠ – على المسلم أن يذكر نفسه وغيره بنعم الله عليه – سبحانه وتعالى – فإن ذلك أدعى للخضوع والانكسار بين يدي الجبار، والتذكير مما يقوي الإيمان في النفس، والثقة في الخالق.

٧١ – على الإنسان أن يتواضع للواحد الأحد، فلا يعجب بعلمه، ولا بإنتاجه، ولا بما عمل وحقق من أشياء، فيوسف – عليه السلام – لم يفخر على إخوانه بملك مصر، بل عفا عنهم، وصفح وأنزلهم منزلاً كريمًا.

٧٢ – على العبد أن يدعو الله في الأزمات أكثر مما يدعو في وقت الرخاء، وأن يلح على الله – عز وجل – لأن الإلحاح طريق العبودية، وبخاصة في السجود، وأدبار الصلوات، وفي آخر الليل، وبين الأذان والإقامة، وفي ساعة الاستجابة يوم الجمعة، وفي عرفات، وغيرها من المناسبات.

٧٣ – على المسلم أن يعدل في تعاملاته وأعماله مع الآخرين فإن ذلك مما يزكي النفوس، ويقوي أواصر المحبة والترابط.

٧٤ – وجوب المساواة والعدل مع الآخرين، ومشاركتهم في الأعمال، فيوسف – عليه السلام – عندما وُلِّي الخزائن كان يشرف على العمال ويتابعهم ويعمل معهم.

٧٥ – الرأفة بالآخرين واحتساب الأجر عند الله، فيوسف – عليه السلام – رأف بكل من آذاه بدءًا بإخوانه وصولاً إلى امرأة العزيز، فكلهم رأف بهم ولم يطالب بمعاقبتهم، بل عفا عنهم وصفح واحتسب الأجر عند الله.

٧٦ - ما أرخص الحياة إذا لم تكن في طاعة الله - عز وجل -، ولقد كانت رخيصة تافهة عند يوسف - عليه السلام - وعند والده، وعند الأنبياء والسلف الصالح.

٧٧ - النصر مع الصبر دائمًا، ومهما تأخر النصر فإن الله وعد أولياءه به إذا هم بذلوا أسبابه، وصدقوا في القول والعمل.

٧٨ - الحسنات يذهبن السيئات، والمحاسن تغطي المساوئ، وعلى المسلم أن يكون منصفًا في حكمه على الآخرين، وليطلب الأجر والثواب من الله.

٧٩ - كن متسامحًا مع الناس، أحسن إليهم حتى وإن أساؤوا إليك، واجعل قدوتك في ذلك الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - الذين ظُلِموا وكذِّبوا، وضُيِّق عليهم، واستُهزِئ بهم، ومع ذلك صبروا فظفروا بالنصر، وعفوا وتسامحوا.

٨٠ - على المسلم أن يعتمد على الله الواحد الأحد في كشف الضر والبلوى عنه، فلا ناصر ولا معين ولا معافي ولا مشافي ولا خالق ولا رازق ولا معزَّ ولا مذلَّ، ولا كاشف الهم إلا الله، فلتصدق مع ربك.

٨١ - على المسلم أن يرضى بمرِّ القضاء؛ وهو الرضا بالقدر خيره وشره، وهذه سيرة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في حياتهم.

٨٢ - على المسلم أن ألا يَشْمت بالآخرين، وليحمد الله، فيوسف - عليه السلام - لم يشمت بما حل بإخوانه من فقر، وهم الذين ظلموه وعَقُّوا أباهم به.

٨٣ – يجوز للإنسان أن يتقي أعين الحاسدين، وأن يُعَوِّذ من يجب، فيعقوب – عليه السلام – قال لبنيه: ﴿**لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**﴾.

٨٤ – التوكل على الله واجب في المنشط والمكره ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾.

٨٥ – على الإنسان إذا كان صادقًا وأن يدرأ عن نفسه الشبهات والتهم بما يستطيع من قول وفعل.

٨٦ – على المسلم أن يتوجه بشكواه إلى خالقه، فالشكوى لغيره مَذَّلة، ويعقوب – عليه السلام – قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾.

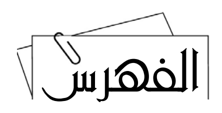
٨٧ – جواز استخدام عبارات التقدير والاحترام إلى من بيده قضاء الحاجات الدنيوية، فإخوان يوسف وصفوه بقولهم: ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

٨٨ – على المسلم أن يكثر من الاستغفار لله له ولإخوانه المسلمين والدعاء لهم بظهر الغيب؛ حتى يُقال لك: «ولك مثل ذلك».

٨٩ – على المسلم أن يأخذ العبرة والعظة من قصص القرآن، وأن تكون دافعًا لزيادة الإيمان عنده ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾.

٩٠ – وجوب البُعْد عن إطلاق التُّهم جُزافًا على الآخرين، حتى يتضح الحق، وتستبين الحقيقة.





الموضوع	الصفحة





نعـرض لقصـة أعظم سـجين في التاريـخ ونحن نعيـش القصة مع كتاب الله مع البرهـان والموعظة البالغة وقد اختار الدكتور عائض القرني قصة نبي اللـه يوسـف عليه السلام لأنهـا مـن أعظم القصـص حتى قال بعـض أهل العلم: إنها أعظم قصة سمعنا بها. قال تعالى: «نحن نقص عليك أحسـن القَصَص»، وأحسن القصص وأصدقها ما كان في كتاب الله ومنها قصة يوسف عليه السلام؛ لأن فيها من قصص الأنبياء والرسل عليهم السـلام والملـوك والتجـار والأغنياء والفقـراء والحبـس والشـدة والفرج والغنى والفقر وذكر الفاحشة والعفاف والذنـب والمغفـرة والرؤيـا المناميـة والأخبار باليقظة..

وقالـوا: أحسـن القصـص لأن كل ماجاء فيها عاد إلى أحسـن حال. فمن كان مع الله كان الله معه.

موضوع الكتاب: ١- قصص القرآن
٢- يوسف عليه السلام

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com

ISBN:978-9960-54-842-5

